المكتبة الثقافية

٥٥

القرآن وعلم النفس

عبد الوهاب حمودة

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
مؤسسة العامة للثقافة

١٥ فبراير ١٩٦٢

المكتبة الثقافية

- اول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارىء ان يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع الوان المعرفة باقلام اساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى اوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

جامع السلطان حسن وما حوله

الأستاذ حسن عبد الوهاب

أول مارس ١٩٦٢

دار القلم بالقاهرة

الثمن ٢ ص

المكتبة الثقافية

٥٥

القرآن وعلم النفس

عبد الوهاب حمودة

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
الإدارة العامة للثقافة

١٥ فبراير ١٩٦٢

الناشر

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نزل القرآن الكريم في عهدين متمايزين : العهد المكى وهو ما قبل الهجرة ؛ والعهد المدنى وهو ما بعد الهجرة .

فكما أن هجرة الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة كانت حداً فاصلا فى تاريخ الإسلام بين عهدين ، كانت كذلك حداً فاصلا فى القرآن الكريم بين أسلوبين .

على أن القرآن كله مصوغ فى أسلوب بلاغى لا يضارَع وفى فصَاحة من النظم لا تُبارَى لأنه فى صياغته يتناسب مع موضوع الخطاب ويتلاءم مع نفسية المخاطبين متدرجاً مع الأحداث متطابقاً مع الأحوال الاجتماعية والسياسة التشريعية .

فمن نظر فى القرآن نظرة شاملة جامعة وجده مرآة صادقة

للأحداث التى مرت على الإسلام ، وسجلا محفوظاً للأزمات التى صادفها الرسول فى نشر دعوته وتبليغ رسالته ، وصورة دقيقة للمنهج القويم الذى سلكه فى هدايته ، بل هو ميدان فسيح للتحليل النفسى الذى يكشف عن سر بلاغة القرآن وسحر بيانه ومناط إعجازه .

لذلك كان على من يريد تفسير القرآن ودراسته دراسة عميقة أن ينظر إلى المنزّل عليه القرآن وإلى المخاطب به وإلى الموضوع الذى يتناوله حتى يستطيع بهذه النظرة أن يدرك أسرار أسلوبه ويقف على خصائص تعبيره ويكشف عن سمو أهدافه.

جاء فى الإتقان للسيوطى (٢/١٧٨) عند الحديث على أخطاء المفسرين ومواطن زللهم .

« أكثر ما يقع الخطأ فى التفسير من جهتين :

إحداهما : قوم اعتقدوا معانى ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها .

ثانيتهما : قوم فسّروا القرآن بمجرد ما يسوغ في لغة العرب من غير نظر إلى المنزّل عليه القرآن والمخاطب به وموضوع الخطاب » .

فتحقيقا لهذه الغاية ظهر لنا أن المخاطبين فى المدينة يختلفون

عن المخاطبين فى مكة فصاحة وعقلية وخلقاً وبيئة .

وأن الموضوعات التى تتناولها السور المدنية تختلف عن الموضوعات التي تناولتها السور المكية .

وأن نفسية الرسول صلوات الله عليه فى المدينة غيرها فى مكة .

لهذا كله كان للقرآن المدنى أسلوب له خصائصه ومميزاته عن القرآن المكى الذى له أسلوبه وخصائصه ومميزاته ، وفى كل إعجاز وسحر بيان ، وجمال نظم ، يدل على أنه ليس فى طاقة البشر وإنما هو تنزيل من حكيم حميد .

فأهل مكة كانوا يومذاك أهل شرك وعبادة أوثان وأهل رياسة وسيادة ، ديدنهم العناد وخلقهم الغطرسة والجفوة وعقولهم فى الدين مقفلة ، وطباعهم فى الجدل جافة ، فهم جامدون فى تقليدهم واقفون عند كبريائهم .

قال تعالى « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » .

(قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة[1] وإنا على آثارهم مهتدون » .

« وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا » « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا »

---

(١) دين .

وكانت موضوعات السور المكية جلّها فى أصول الإيمان الاعتقادية من الإلهيات والوحى والرسالة والبعث والجزاء. ويلى ذلك فيها أصول التشريع الإجمالية العامة والآداب والفضائل الأساسية ويتخلل هذا وذاك مجاجة المشركين ودعوتهم إلى الإيمان بتلك الأصول وإبطال ضلالاتهم ومحاربة خرافاتهم.

فلذا جاءهم القرآن الكريم يخاطبهم صريحاً واضحاً سهلا فى أسلوب فطرى وجداني لا يدخر وسعاً فى سلوك كل طريق ليصل إلى قلوبهم الغليظة وعقولهم المغلقة.

فكانت السور المكية تارة تنذرهم وتخوفهم فتذكرهم يوم الفصل، وبالصاخة تجيئهم، وبالقارعة تحل بهم ثم تصف لهم سقر وزبانيتها وجهنم وملائكتها.

قال تعالى «سأصليه سقر. وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر. عليها تسعة عشر».

«انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب. إنها ترمى بشرر كالقصر. كأنه جمالة صفر. ويل يومئذ للمكذبين».

وتارة يصف الجنة ونعيمها وحدائقها وأنهارها تحريكا

للشوق والرغبة كما حرك الخوف والرعب فى الآيات السابقة .

وفى ذلك يقول علم النفس :

إذا استثار شيء ما شوق إنسان واهتمامه فإن هذا الشوق لا يلبث حتى يفيض على النفس قوة تحركها إلى العمل وإذا اشتد الميل وأصبح تحمساً ، قصر المرء الجزء الأكبر من وقته وفكره على العناية بما تشوقه أو فى الحصول عليه فتصبح حياته حافلة مليئة ذات قيمة ومعنى .

كما أن الخوف أقوى عامل يكف الإنسان عن كثير من الأفعال العاجلة والآجلة القبيحة . لهذا كان له أثر كبير فى التربية والتأديب وهو الأساس لغريزة التدين التي ترمى إلي قيادة السلوك الإنساني وتنظيمه .

قال تعالى فى وصف الجنة ونعيمها « إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأساً دهاقا [1] لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا . جزاءً من ربك عطاء حسابا » .

« والسابقون السابقون أولئك المقربون . فى جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين . على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون .

---

١) مترعة ملأى .

بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يُصَدَّعُون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون . لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما . إلا قيلا سلاما سلاما . وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . فى سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب . وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة . وفرش مرفوعة . . . إنا أنشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكارا . عرباً أترابا . لأصحاب اليمين » .

« إن المتقين فى جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم (١) من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون . يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون » .

كل ذلك فى أسلوب مسجوع قصير . وموسيقى وجدانية ساحرة وجمل متزنة مزدوجة .

---

(١) نقصناهم .

وبين هذا وذاك يجذب القرآن أنظارهم إلى ما ألفوه من مشاهد الطبيعة الدالة على قدرة الله ووحدانيته وعظم آياته لكى يتوصلوا من ذلك إلى ألوهيته ويدركوا حقيقة عظمته .

يسوق القرآن كل ذلك فى صيغة مؤكدة بالقسم الذى درجوا عليه فى تعابيرهم وفى أسلوب عذب ونغمة جميلة ليكون ذلك أبلغ أثرا فى نفوسهم وأعمق فعلا فى وجداناتهم .

ثم يضرب لهم الأمثال بالأمم السابقة التى كانت أشد منهم قوة فهلكوا لظلمهم وعصيانهم خالقَهم ، ليوقظ من وراء ذلك التهديد فى قلوبهم ويحيى بصارم هذا الوعيد ميت وجدانهم .

قال تعالى «والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر . هل فى ذلك قسم لذى حجر . ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد . الذين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد» .

وقد شاع فى هذا العهد المكى ظاهرتان :

الظاهرة الأولى الإيجاز وقد لأحظ الجاحظ ذلك فقال فى كتاب الحيوان (١ / ٩٤) .

(رأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والحذف وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد فى الكلام وأطنب) .

وذلك لأن المخاطبين من أهل مكة كانوا أهل فصاحة ولَسَن بضاعتهم الكلام وهمهم البيان فيناسبهم الإيجاز والإقلال دون الإسهاب والإطناب .

ولأن التشريع الذى فى السور المكية تشريع إجمالى لا تفصيلى حيث الإسلام لم يستقر بعد ، حتى يأخذ فى تنفيذ شرائعه وتفصيل قوانينه ، وذلك لأن التشريع العملى مرتبط بسلطان الحكم التنفيذى ، فلا فائدة من تشريع لا يملك صاحبه قوة تنفيذه وإجراء أحكامه .

وأما الظاهرة الثانية فهى القسم وشيوعه فى ذلك العهد لأسرار عجيبة وأغراض نفسية سامية مما سنبينه فيما بعد .

على أن القرآن المكى لم يخل أحيانا من لين ورقة ومحاسنة وملاينة إذا ما توجه بالخطاب إلى المؤمنين أو إذا سلك مسلك الوعظ والتذكير أو وصف الجنة وظلالها .

أما الرسول صلوات الله عليه فكان فى غالب أحواله بمكة حرجا صدره ، حزينة نفسه ، قلقا على قومه ، مهموما لسوء مصيرهم

وما لهم. ولطول معارضتهم وتوالى الأذي منهم له ولأصحابه ولشدة حرصه على نجاتهم من ضلالهم وتخليصهم من عبادة أصنامهم .

قال تعالى « فلعلك باخع[1] نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » « لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين » (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) (قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون ».

لذلك كثر فى السور المكية آيات التسلية والعزاء والحث على الصبر والوعد بالانتصار والفوز وتذكيره صلوات الله عليه بما لاقاه قبله إخوانه من الرسل من الأذى من قومهم .

قال تعالى (قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » .

وقال تعالى: فى السورة الثالثة فى تاريخ النزول وهى (المزمل):

(١) هالك .

« واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » .

وقال تعالى فى سورة (ق) وهي من أوائل ما نزل « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم » .

« وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك »

« ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) .

لقد وعدنا بالحديث عن أسرار القسم وهو من الخصائص التى شاعت فى السور المكية .

فأقسم الله تعالى فى مطالع السور المكية بضروب من القسم بالأزمنة والأمكنة والأشياء . وإذا رجعنا إلى جميع ما أقسم الله به وجدناه إما شيئا أنكره بعض الناس أو احتقره لغفلته عن فائدته أو ذهل عن موضع العبرة فيه وعمى عن حكمة الله فى خلقه أو انعكس عليه الرأى فى أمره فاعتقد فيه غير الحق فيقسم الله به إما لتقرير وجوده فى عقل من ينكره أو لتعظيم شأنه فى

نفس من يحتقره أو لتنبيه الشعور إلى ما فيه من أسرار وحكم عند من لا ينكره أو لغاب الاعتقاد فى قلب من اضله الوهم أو خانه الفهم أو للكشف فيها عن دلائل وحدانيته وآيات قدرته .

وهو فى هذا مرتكز علي العادة النفسية التى الفها العرب من قديم .

فعرب الجاهلية قد عرفوا القسم واستخدموه فى كلامهم وأحكامهم حتى عده زهير الوسيلة الكبرى لإحقاق الحق فقال :

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نِفار أو جَلاء

(النفار المحاكمة إلى الحاكم ، والجلاء وضوح البينة)

فلما نزل القرآن نزل بلغة العرب وعلي ما ألفوه فى أساليبهم ليكون مفهوما لديهم حبيبا إلي نفوسهم حتى إذا ما ظهر عجزهم عن الإتيان بسورة من مثله كان ذلك عن أمر عرفوه واسلوب ألفوه وإنما عجزوا لأنه تنزيل من حكيم حميد .

فنزول القرآن وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مالوفة عند العرب فاقسم هو حتى لا يكون لهم عذر فى حجودهم وإنكارهم .

ولنستطرد الآن إلي مناقشة رأي للمستشرق الكبير

(نولدكه) فى صدد أساليب الإقناع فى القرآن وذلك لصلة هذا الرأى بالقسم . يقول (نولدكه) كما ذكر ذلك الأستاذ نيكلسون فى كتابه « تاريخ العرب الأدبى » :

« كان غرض محمد الوحيد فى السور المكية تحويل الناس بطريق الإقناع عن عبادة الأصنام الباطلة إلى عبادة إلـه واحد . هذا هو الهدف الأساسى فى دعوته مهما تشعب الموضوع، إلا أن محمدا بدلا من ان يتوجه إلى عقول سامعيه يقنعها بالبراهين المنطقية ، لجأ إلى الفن الخطابى ليؤثر على عقولهم عن طريق الخيال والوجدان » .

ونحن نعرف أنه من الأسلوب الخطابى الاستدلال بالحلف والأيمان . وهذا خطا من (نولدكه) فى زعمه هذا من أن القرآن المكى خلو من الحجج بالبراهين العقلية والمناقشة بالأدلة المنطقية.

وقد روّج هذا الزعم بعض الباحثين المعاصرين على غير أساس فى بحثهم وتثبت من قولهم — فقد جاء فى القرآن المكى الإقناع بالحجة والجدل بالبرهان ولاسيما فى السور الأخيرة من العهد المكى . ورسم القرآن للنبى ﷺ أساليب الدعوة تختلف باختلاف من يدعوهم .

فقال تعالى فى سورة (النحل) وهى مكية (أدع إلى سبيل ربك

بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) .

فمن يدعوهم خواص ، وهم أصحاب نفوس مشرقة قوية الاستعداد لإدراك المعانى قوية الانجذاب إلى المبادىء العالية فهؤلاء يُدعون بالحكمة (وهى المعانى المحكمة والكلام الصواب الواقع من النفس أجل موقع) .

ومنهم عوام أصحاب نفوس كدرة ضعيفة الاستعداد شديدة الألف للمحسوسات قوية التعلق بالرسوم والعادات قاصرة عن درجة البرهان فهؤلاء يُدعون بالموعظة الحسنة (وهى ما تضمنه الكتاب العزيز من الرغبة والرهبة والإنذار والتخويف) .

ومنهم من يعاند ويجادل بالباطل ليدحض به الحق لما غلب عليه من تقليد الآباء ولرسوخه فى العقائد الباطلة فصار بحيث لا تنفعه المواعظ ولا تجدى فيه العبر بل لابد من إلقامه الحجر باحسن طرق الجدال لتلين عريكته وتزول شكيمته وهؤلاء الذين أمر ﷺ بجدالهم بالتى هى أحسن .

يقول الغزالى فى كتابه « القسطاس المستقيم » :

« إن المدعو إلى الله تعالى بالحكمة قوم ، فإن الحكمة إن غذّي بها أهل الموعظة أضرت بهم كما تضر بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير ، وإن المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة اشمأزوا

منها كما يشمئز طبع الرجل القوى من الارتضاع بلبن الآدمى ».

على أن الأمثلة من القرآن الكريم لاتعوز الباحث المنصف لو أراد صوابا فى الرأى واستقامة فى الفكرة .

قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) .

أليس فى هذه الآية مناقشة بالحجة وجدال بالبرهان وهى آية مكية فى سورة مكية ؟

بل ربما اورد القرا ن الكريم فى السورة الواحدة نوعين من الأدلة كما فى سورة (القيامة) فإنه بدأها بالقسم علي حقيقة البعث وهو دليل خطابى ثم ختمها بالدليل القائم على المحسوس وجعله ختامها لكى يفكروا فيه بعد ذلك .

فقال تعالى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منىّ يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى ؟) .

فالقسم جاء فى القرآن الكريم فاتحة للسور المكية فى خمس عشرة سورة نحو « والصافات ، والذاريات ، والسماء ذات البروج ، والسماء والطارق » ووقوع القسم فى ابتداء السور له أثره النفسى . فإن البدء به هو جذب لانتباه السامع لوقوع القسم على سمعه فى شىء من الرهبة فإذا حدث ذلك صحبه تهيؤ

نفسى لتلقىّ ما يقال خصوصا وأن ما يقال مبنى على قسم والقسم شىء يهول ، وفى هذه الحال يكون الإنسان أشد تاثرا بما يسمع مما لو فاتحته بما تريد من طريق الجدل والنقاش لأن الإقناع العقلى فيه انتصار حاد لعقل على آخر ومن الصعب على النفوس الجامحة العنيدة كنفوس العرب فى جاهليتهم أن تقر لأحد المتجادلين بالغلبة أو تسلم له بالانتصار من طريق الإفحام بل كثيرا ما يكون السامع غير عارف باصول الإقناع العقلى فلا فائدة إذن من فتح هذا الباب أمامه والدخول عليه من هذا الطريق الذى يجهله .

فالقسم فى اوائل السور يعطيها نضرة فى بهجتها ورونقا فى ديباجتها فتلمع الأقسام فى قسمات السور كالغرة البارقة بل هى أشبه شىء بالمطالع الحسنة فى القصيدة الجيدة .

وفى هـذا رعاية نفسية لجانب المستمع لكيلا ينفـر فيَسُدّ اذنيه .

ومن كمال الحجة تليين القول وتاليف القلب . فقد امر الله الأنبياء بهذا كما قال تعالى لموسى وهرون حين ارسلهما إلى فرعون: « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى » .

ولهذا نرى فى أقسام القرآن أقساما يالفها العرب ويحبونها ويمجدونها . ألا ترى أن القرآن أقسم بالبلد وبالبلد الأمين

وهي مكة ؟ وهي وطن خاتم أنبيائه ورسله .

ومع ذلك لم ينس بقية أنبيائه من أصحاب أكبر ديانة في العالم والكتب التي أنزلت عليهما لا يزالان في العالم .

قال تعالى (والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين) فأقسم الله بهذه البقاع المباركة الشريفة إذ هي أمكنة ثلاثة عظيمة هي مواطن أنبيائه أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة . قال ابن كثير في تفسيره) :

(قال بعض الأئمة (وهو ابن تيمية) : «وهذه محال ثلاثة بعث الله من كل واحد منها نبيا مرسلا من اولى العزم أصحاب الشرائع الكبار » .

فالأول محل التين والزيتون وهو بيت المقدس الذي بعث الله فيه عيسى بن مريم عليهما السلام .

والثاني طور سينين وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسي بن عمران .

والثالث مكة وهو البلد الأمين الذى من دخله كان آمنا وهو الذى أرسل فيه محمد ﷺ .

وفى التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : « تجلى الله من طور سيناء : يعنى الذى كلم الله عليه موسى . وأشرق من

ساعير : يعنى جبل بيت المقدس الذى بعث الله منه عيسى، واستعلن من جبال فاران: يعنى جبال مكة التى ارسل الله منها محمداً ﷺ».

ومن اعجب الأقسام فى ذلك القسم بالخيل وهى أعز شىء لديهم لأنهم أمة قتال وإغارة فحياتهم قائمة عليها وأكثروا فى شعرهم من أوصافها .

قال تعالى (والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فاثرن به نقعا . فوسطن به جمعا .) .

فاقسم الله بها وهى مغيرة ووصف النقع الذى تثيره بحوافرها ليذكرهم بنعمته عليهم ويطالبهم بالشكر عليها والاعتراف بعظيم آلائه ووحدانيته فى ألوهيته .

ليس هذا فقط هو سر القسم بالعاديات وهى الخيل تضبح فى عدوها (الضبح هو صوت أنفاس الخيل عند جريها) فيسمع صوت أنفاسها فى أجوافها والشرر يتطاير من حوافرها عند جريها وبالمغيرات على العدو وقت الصباح فتفاجئه بهجومها فتثير غباراً وتتوسط جمعا .

بل أقسم بالخيل متصفة بهذه الصفات لينوه بشأنها ويعلي من قدرها فى نفوس المؤمنين . ثم ليطابق بين القسم والمقسم عليه، فإن المقسم عليه هو كنود الإنسان وجحوده لنعمة ربه وكفرانه بنعمائه

(إن الإنسان لربه لكنود) وفى ذلك جموح من القلب وعنف فى الطبع وشراسة فى الخلق وغرور من النفس وافتتان بالقوة . وهذه كلها من أوصاف الخيل حين عدوها وإغارتها .

ثم ختمت السورة بما يلائم إثارة النقع وقدح النار من الصخر وإخراج النفس بشدة وسرعة . فقال تعالى (أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور . وحصل ما فى الصدور) .

فالفاظ السورة كلها ألفاظ حية متحركة وفى صورها نشاط وثورة وأخذ ورد وكر وفر وهجوم ودفع وإثارة لما كان مستوراً وبعثرة لما كان مجموعا وجمع لما كان مبعثراً .

صدق الله العظيم (لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

أما السور المدنية أو القرآن المدني فيتحدد بالكلام على بيئته المدنية ثم الموضوعات التى تناولها القرآن ثم نفسيه الرسول ﷺ .

وصل الرسول صلوات الله عليه وصاحبه يثرب سنه ٦٢٢ هـ ومن ثم أصبحت هذه المدينة معقل الإسلام وملجأ جماعة المسلمين،وكان المجتمع فيها مكوناً من أربع طوائف وأصناف :

الطائفة الأولى : المهاجرون وهم الذين هاجروا فراراً بدينهم من مكة .

والصنف الثانى : الأنصار وهم الذين دخلوا الإسلام من سكان المدينة الأصليين ، وهاتان الطائفتان هم المسلمون الصادقو الإيمان وهم يكوّنون الجزء الأكبر من أهل المدينة .

والصنف الثالث : فريق من اهل المدينة لم يرغب فى تغيير دينه الوثنى فوقف من المسلمين مواقف متناقضة ، وهم المنافقون يظهرون خلاف ما يبطنون، وكانوا خصوما للنبي ﷺ ولأصحابه وكان شياطينهم ورؤساؤهم فى ذلك اليهود. قال تعالى فى سورة البقرة وهى أول سورة نزلت بالمدينة وصفاً للمنافقين (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) قال القرطبي فى تفسيره (شياطينهم أى رؤسائهم من اليهود) .

ولذلك لم يتحدث القرآن عن النفاق إلا فى السور المدنية .

والصنف الرابع : هم اليهود بقية من بنى إسرائيل مع من تهود من العرب وقد كان هؤلاء اليهود من الناحية العقلية أرقى من العرب فى جاهليتهم لأنهم أهل كتاب وكان للنبى ﷺ

فيهم رجاء كبير حيث هم قوم عرفوا الوحى وقرأوا الكتب المقدسة ولكنهم كانوا أشد الطوائف عداء للرسول ولأصحابه بغياً وحسداً لما خص الله تعالى به العرب من اختياره رسوله منهم . قال تعالي (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) .

وقال تعالى (لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين امنوا اليهود والذين أشركوا).

فكان القرآن المدني يخاطب كل هذه الطوائف ويجادلهم ويبطل حججهم . ثم يشرّع للمسلمين فى حربهم وسلمهم وفى أحوالهم الشخصية ومعاملاتهم التجارية . وبين حين وآخر يوجه القول للمشركين يعنفهم ويهددهم وينذرهم ويخوفهم ويسجل انتصارات المسلمين عليهم . كل ذلك سنجده فى القرآن المدنى مسجلا فى أسلوب يغاير أسلوب القرآن المكى وفى خصائص تتطلبها موضوعات الخطاب ومواطن الكلام وتتلاءم مع نفسية الرسول وأحواله المتطورة .

هذه هى بيئة المدينة والطوائف التي كانت بها والتى نزل القرآن المدنى يتحدث عنها ويصورها .

أما الموضوعات التى تناولتها السور المدنية فهى موضوعات جديدة جاءت في ذلك العهد فضلا عن العقائد الدينية منها أحكام الصلاة وفرض الصوم والحج والقوانين الاجتماعية والسياسية التى تبحث فى شئون الزواج والطلاق والميراث ومعاملة الرقيق واسرى الحروب وجاءت أيضاً بتحريم الخمر وأكل لحم الخنزير وتحريم الميسر وأحكام تنظيم المال وفرض الجهاد وشرعت قوانين مدنية وعقوبات جزائيـة تتعلق بالقتل والثأر والسرقة والربا .

قال الشاطبى فى كتابه « الموافقات » .

« ثم لما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة واتسعت خطة الإسلام كملت هناك الأصول الكلية على تدريج كإصلاح ذات البين والوفاء بالعقود وتحديد الحدود التى تحفظ الأمور الضرورية ومايكملها ويحسّنها ورفع الحرج بالتحقيقات والرخص وماشبه ذلك . كله تـكميل للأصول الـكلية التى نزل القرا ن بهـا فى مـكة » .

أما حالة الرسول صلوات الله عليـه النفسية والاجتماعية فى المدينة فهى انه حين وصل إلي المدينة دخلها مظفراً أكثر منه مهاجراً فاشتدت عزيمته باستجابة أهل يثرب لدعوته ودخولهم

فى دينه فكانوا له سنداً وانصاراً مما لم يجده فى الطائف ولا فى وطنه مكة فانقضى عهد الاضطهاد والتعذيب وجاء زمن الانتصار والترفيه .

ولما استقر بمحمد المقام أقام فى جزيرة العرب مجتمعاً على أسس جديدة بعيدة من عصبيات القبائل والعشائر مما لم يصنع مثله مؤسسو الديانات إلا نادراً،وأصبح لزاماً عليه أن يكون قائداً حكيما وزعيما سياسياً وهادياً موفقا دون انقطاع عن القيام بامر الرسالة وتلقى الوحى وتبليغ القرآن .

ويقول (توماس أرنولد) فى كتابه « الدعوة إلي الإسلام » .

« ولكن لنرجع إلى الحديث عن محمد وهو فى المدينة . ومن ثم نستطيع أن ندرك كيف استطاع محمد أن يجعل من نفسه زعيما على جماعة من انصاره كثير عددهم دائم نموهم ، كلهم ينظر إليه نظرتهم إلى رئيس لهم وقائد لنهضتهم ، غير معترفين بسلطان غير سلطانه فى غير ماشعور بقلق أو إحساس بخطر أو توجس من خوف اعتداء على سلطانه كما يحدث عادة فى مثل تلك المجتمعات .

وهكذا قام محمد باداء رسالته بين قومه كاحسن ما يقوم زعيم مستقل غير أنه هنا قد قام رباط الأخوة الدينية مقام العصبية القبلية » .

لذلك كله كان للقرآن المدنى سمات خاصة به ومميزات واضحة

فى اسلوبه ، من تلك السمات أن لبعض السور المدنية ألواناً عرفت بها وموضوعات اختصت ببحثها .

فمن أراد أن يدرس أحوال اليهود فعليه بسورة البقرة والنساء والمائدة .

ومن أراد أن يدرس أحوال النصارى فعليه بسورة آل عمران والنساء والمائدة .

ومن أراد دراسة احوال المنافقين فعليه بسورة النساء والمنافقون وبراءة والأحزاب .

ثم من خصائص السور المدنية ايضاً أنه يسهل تحديد تاريخ نزولها ومعرفة زمن تلقيها والوحى بها .

فمثلا سورة البقرة .فالجزء الأكبر منها يرجع إلى السنة الثانية من الهجرة قبيل غزوة بدر . وقد عرضت لأحكام كثيرة مثل تحويل القبلة من بيت المقدس إلي الكعبة وقد حصل ذلك التحويل فى السنة الثانية من الهجرة ، ومثل تشريع المحرمات من الماكل ، ومثل الصوم والجهاد والإنفاق .

وقد أفاضت هذه السورة فى محاجة اليهود ومناقشة اعتراضاتهم مناقشة يرتكز الإقناع فيها على استمال عقولهم وحثهم على التروى فى شانهم وتوبيخهم على تحريفهم لكتابهم مثل قوله تعالى (وقالوا

لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ام تقولون على الله مالاتعلمون) .

ومن السور المدنية التي نزلت في هذا الوقت — وهو السنة الثانية من الهجرة — سورة الأنفال . فقد نزلت عقب غزوة بدر مبينة لتقسيم الغنائم متحدثة عن الغزوة وما حدث فيها من عجائب (ليحق الله الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) .

ثم سورة النساء نزلت بين السنة الثالثة والخامسة . تناولت تشريعات تختص بالأيامى واليتامى والميراث مما يدل على أنها نزلت بعد غزوة احد حيث استشهد كثير من المسلمين فى هذه الغزوة وتركوا خلفهم نساء أرامل ويتامى كما تعرضت لمسائل الزواج فى هذا الوقت الذى كانت الحاجة فيه تتطلب هذا التشريع حيث تأيمت نساء كثيرات .

ثم سورة المنافقون نزلت فى السنة الخامسة من الهجرة عقب غزوة بنى المصطلق حين تشاجر مهاجرى وأنصارى فتبجح عبد الله بن أبى بن سلول رئيس المنافقين وعيّر المهاجرين بقوله « (سمن كلبك يا كلك) أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منا الأذل » . فنزلت السورة وفيها يقول الله تعالى (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز

منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) .

وهكذا من اليسير على الباحث تحديد تاريخ الآيات المدنية . على أنه من العسير تحديد تاريخ الآيات المكية . وهذا من أبرز خصائص القرآن المدنى .

ومن الخصائص ايضاً أن آيات المكى على الجملة قصار بخلاف آيات المدنى فهى على الجملة طوال .

ومن الأمثلة القريبة على ذلك جزء (قد سمع) فهو كله مدنى وعدد آياته سبع وثلاثون ومائة وجزء تبارك كله مكى وعدد آياته إحدى وثلاثون واربعمائة ، ومن ذلك سورة الأنفال وسورة الشعراء كلتاهما نصف جزء من القرآن لكن الأولى مدنية وعدد آياتها خمس وسبعون ، والثانية مكية وعدد آياتها سبع وعشرون ومائتان .

وهنا مثل آخر . فنى سورة (إبرهيم) وهى مكية حديث عن الإنفاق فى إيجاز واختصار قال تعالى (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل ان يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) .

وفى سورة البقرة ـ وهى مدنية ـ حديث عن الإنفاق أيضا

فى إسهاب وتفصيل قال تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّا ولا أذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها اذى والله غنىٌّ حليم) .

وذلك لأن آيات المكى ليس فيها شىء من التشريع التفصيلى بل معظم ما جاء فيها يجيء مختصرا على شكل أمور كلية ومقاصد إجمالية .

أما التشريع التفصيلى فمعظمه وارد فى السور المدنية ولهذا السبب عينه قل أن نجد فى السور المدنية السجع القصير والموسيقى الرتيبة المتوالية .

فاين قوله تعالى فى سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، احلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلّى الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد) .

من قوله تعالى فى سورة التكوير المكية (إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت . وإذا العشار عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت .

وإذا النفوس زوجت . وإذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت) .

والعامل النفسى فى ذلك هو أن القوم فى مكة كانوا غير مستقرين بل كانوا مطاردين قلقة نفوسهم غير مستعدة لتشريع او تفصيل والمشركون أيضاً كانوا منصرفين عن سماع القرآن متأثرة نفوسهم بأدبهم المسجوع قريبا عهدهم بخطبهم المثيرة لوجداناتهم والتشريع يحتاج إلى هدوء ورزانة فى العقل وترو فى المنطق وتقبل للإرشاد ورغبة فى التطور والإصلاح وطاعة للأمر واستجابة للداعى وكل هذه الحالات النفسية غير متوفرة فى الحياة المكية .

على أن هذا المميز وهو الطول وعدم السجع فى القرآن المدنى أغلبي فقد يوجد فى بعض الآيات المكية طول وأكثر ذلك فى السور الطوال كسورة النحل والأنعام .

فطول الآيات وقصرها منوط بموضوعها حسبما تقتضيه البلاغة فالسور أو الآيات التى يراد بها الوعظ والزجر يحسن فيها أن تكون أقصر من آيات الأحكام وهى تكثر فى القرآن المكى لأنه هو المناسب لحال المخاطبين من المشركين لجحودهم وعنادهم وطول باعهم فى البلاغة .

والآيات التى ترد فيها الأحكام التفصيلية يكثر فيها الإطناب والتفصيل فتأتى طويلة مفصلة .

ومن خصائص القرآن المدنى أن خطاب الجمهور فيه يغلب ان يكون بقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا) وقلما يرد بقوله تعالى (يأيها الناس) لأن فى الصورة الأولي فى النداء تكريما وتشريفا وعذوبة ولينا لذلك لم نر فى السور المكية ولو مرة واحدة (يأيها الذين امنوا) .

اما فى السور المدنية فقد ورد (يأيها الناس) إحدي عشرة مرة حين يُقصد بالخطاب المشركون أو يقصد خطاب جميع المكلفين .

علي أن القرآن المكى والمدنى سواء فى البلاغة المثلى والبيان المعجز تنزيل من حكيم حميد .

وبعد فالقرآن الكريم كله مكيه ومدنيه قام على رعاية حال المخاطبين وملاءمة الموضوع الذى يتحدث عنه والحالة النفسية للرسول المنزل عليه .

(ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) .

مبحث التفسير العلمى
والـــرأى فيـــه

كثيرا ما نسمع من المتعلمين الذين لُقحوا بمبادئ هدامة أن القرآن الكريم الذى يمثل الدين الإسلامى لاتتفق بعض آياته وما جاءت بها العلوم العصرية كأن الدين شىء والعلم شىء آخر مع أنهما توأمان فالعلم نصير الدين والدين نصير العلم فالعلم غذاء عقلى والدين غذاء روحى . قال الإمام الغزالى :

« إن الدين دواء والعلم غذاء وليس الدواء بمغن عن الغذاء وليس الغذاء بمغن عن الدواء » » .

فالعلوم بجملتها آيات ناطقة وبراهين واضحة ودلائل شاهدة تفصح بأبلغ بيان وتدل بأجلى برهان على ما فى هذه الأكوان من غريب الصنع وإتقان الخلق .

فى أصغر الأشياء — بله أعظمها — يرى الإنسان من المدهشات ما يحمله على طأطأة الرأس أمام مبدعها العظيم ويحفزه للتسليم بالحجة الدامغة بأن لهذا الكون خالقا مبدعا — له من الأنظمة مالم يقتدر على خلقها إلا هو .

فمن ذا الذى يرى منافاة الدين للعلم ! ألا إنما المنافى للدين

هو ترك العلم والجهل بما أحاط بنا من المخلوقات .

أما فيما يقال إن بعض ما جاء من آيات فى القرآن الكريم لا تتفق وما جاءت العلوم العصرية به فليس من الحق فى شىء . فليس فى القــرآن من الآيات القطعية الدلالة ما يتعارض مع قطعيات العلم . وما عارض من ظنيات العلم ظنيات الدين فإما أن تؤول ظنيات الدين حتى تنساق مع ظنيات العلم وإما أن نتمسك بظنيات الدين من غير أن نعكّر على علماء الكون صفو مباحثهم ونقف عثرة فى سبيــل جدهم واجتهادهم بل نصافحهم مصافحة الأخ أخاه ونثنى على هممهم وما يبذلون فى سبيل تحقيق مسائل العلم من جهد ونصب، وإن الدين لم يشرع إلا لتطهير النفوس وتنقيتها وتهذيبها من شوائب الأخلاق الفاسدة وإرشادها إلى ما فيه خيرها وسعادتها فلم ينزل الله شرائعه على أنبيائه ورسله ليفصّلوا للناس نظريات العلوم ويبسطوا لهم قواعد الكيمياء والطب وقوانين الرياضيات والعلوم الأخرى .

على أن ما جاء فى القرآن الكريم من آيات العلم الكونى لم يذكر ما ذكر لتأصيل أصول علمية وتثبيت قواعد فنية وإنما ذكر ذلك فى سياق العظة والعبرة وفى مقام الإرشاد

والاعتبار والاستدلال على قدرة الخالق وحكمته فى مخلوقاته ليتوجه الإنسان ببصيرته إلى خالقه فيسبحه ويمجده ويعبده ويحبه.

ولكن هذه الآيات الكونية التى جاءت فى القرآن الكريم للعبرة والعظة قد ايدتها وعززتها العلوم العصرية فالعلم نصير الدين دائما .

(سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق او لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد) .

ومع ذلك فقد انقسم العلماء بإزاء التفسير العلمى (وهو الذي يحكّم الاصطلاحات العلمية فى فهم آيات القرآن ويحمّل الألفاظ مالم تعرفه العربية ولا يقره أسلوبها) . فريقين :

فريق أخذ بهذا التفسير واتسع فيه حتى جعل من القرآن الكريم إعجازا علميا باشتماله على كل المخترعات والمستحدثات وما سيستحدث من طيارات وغواصات وقنبلة ذرية وصواريخ وأقمار صناعية وأجهزة للتدمير وآلات للتخريب مستدلين فى ذلك بقوله تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شئ) .

فيفهمون مثلا فى قوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) أن المراد بذلك

الطيارات والغوّاصات ، ويقولون إن الإنسان سيغزو الفضاء ويخترق أقطار السموات والأرض وذلك وقتما يتوفر له السلطان وهو العلم والإمكانيات وهذا هو ما تنبأ به القرآن الكريم في سورة الرحمن في الآية الثالثة والثلاثين وهي (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) ويفسرون قوله تعالى (وتري الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) بأن هذه الآية صريحة في دلالتها على حركة الأرض ومرور الجبال معها .

ويفهمون من قوله تعالي (وأرسلنا الرياح لواقح) أن وصف الرياح باللواقح يراد به أنها لواقح للزرع والشجر . وهذا جرى وراء التجديد والأخذ بالنظريات الخلابة .

ويقولون في تفسير قوله تعالى في سورة النمل (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) يقولون في التفسير : في الوقت الذى انتشر فيه الإلحاد ظهرت هذه الأقمار التي خرجت من الأرض لتتحدث عما في الكون الغامض وتزيح بعضا من هذا الغموض والتى ستضفي بعضا من المعرفة على حقيقة الفضاء الكوني الهائل .

والتى يعتبر حديثها أخطر حديث ينصت إليه البشر على اختلاف أجناسهم وميولهم وأديانهم . ألا يمكن أن تكون هذه هى الدابة التى تنبأ بها القرآن الكريم فى سورة النمل .

ونحن نقول ردا على هذا الاتجاه الخلاب أن سر تخطئته قائم على أساسين ، الأساس الأول : الولوع بالتجديد والغرام بمخالفة القديم .

والأساس الثانى : عدم التفطن إلى أن فى هذا الاتجاه والتفسير قطعا لأوصال الآيات وتمزيقا لوحدتها وإغفالا لسياقها وتطويحا بأهدافها .

ففى الآية الأولى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) يريد سبحانه قل يا محمد للمشركين بعد النجاة الموعود فيها بالشكر فى الآية التى قبل هذه (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) .

فقل لهم إنما أشركتم لأمنكم من الشدائد لكن لا وجه للأمان منها لاستمرار منشأ الخوف وهو القدرة الإلهية على أنواع الشدائد من الجهات كلها ، إذ هو القادر على إرسال

عذاب أعظم من تلك الشدة: من فوقكم كأمطار النار أو الحجارة أو إسقاط السماء (أو من تحت أرجلكم) كالخسف والطوفان

فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال لما نزلت (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض، قال: دعوت الله أن يرفع عن أمتي أربعا فرفع اثنين وأبي أن يرفع عنهم اثنين، دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء والخسف من الأرض وأن لا يلبسهم شيعا ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الخسف والرجم وأبى أن يرفع عنهم الآخرين .

فيستفاد من هذه الرواية المراد بقوله (من فوقكم أو من تحت أرجلكم) ويستأنس لهذا الرأى أيضا بقوله تعالى فى سورة الإسراء (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا [1] ثم لا تجدوا لكم وكيلا .)

فأهداف الآية هى تذكير بقدرة الله على تعذيبهم إثر التذكير بقدرته على تنجيتهم لا فرق بين افرادهم ومجموعهم، وإنذار بأن عاقبة كفر النعم أن تزول وتحل محلها النقم .

(١) الريح الشديدة تحمل الحصباء .

وأما الآية الثانية وهى (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان) .

أي إن استطعتم أن تجوزوا أطراف السموات والأرض فتعجزوا ربكم أى بخروجكم عن قهره ومحل سلطانه ومملكته حتى لا يقــدر عليكم (فانفذوا) أى فجوزوا واخرجوا (لا تنفذون إلا بسلطان) أى بقوة وقهر وغلبة ، وأنى لكم ذلك ؟. ونحو هذا المعنى ماجاء فى قوله تعالى (وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء) لأنه لما ذكر فى الآية الأولى أنه لا محالة مجازٍ للعباد عقّبه بقوله(إن استطعتم أن تنفذوا . . فانفذوا) لبيانِ عجزهم وأنهم لايقدرون على الخلاص من جرائه وعقابه إذا أراده .

وأما الآية الثالثة وهى (وأرسلنا الرياح لواقح) .

فمن ذهب إلى حمل وصف الرياح باللواقح أنها لواقح للزرع والشجر فقد أغفل النصف الثانى من الآية إذ لو كان ما ذهبوا إليه هو المراد لترتب عليه إذكاء الزرع وإخراج الثمر للناس يأكلونه لا إنزال الماء من السماء للناس يشربونه . اما وقد رتب الله على إرسال الرياح لواقح إنزال الماءمن السماء يسقاه الناس

فقد تحتم ان يكون للواقح معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع ويكون مع ذلك من ناحية شبيها بلقاح الأحياء من زروع وحيوان ومن ناحية أخرى يكون بينه وبين نزول الماء ما بين العلة والمعلول أو السبب والمسبب .

وما عليك إلا أن تذكر ما جاء فى علم الطبيعة عن تكاثف السحاب وعن أثر كهربائيته فى ذلك التكاثف وأثر الرياح فى تمهيد سبل الاتحاد بين كهربائية موجبة وكهربائية سالبة فى سحاب وسحاب ، لتعلم أن المراد من وصف الرياح بانها لواقح ليس هو الإشارة إلى أثرها فى الجمع بين طلع أعضاء التذكير وبويضات أعضاء التأنيث فى النبات،ولكن هو الإشارة إلي اثرها فى الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة فى السحاب فالملاقحة هنا هى بين قطيرات وقطيرات أو بين سحاب وسحاب لا بين زهر وزهر أو نبات ونبات .

فالآية الكريمة المذكورة هى مظهر من مظاهر الإعجاز المتجدد للقرآن لأن تلاقح السحاب وأثره فى نزول المطر أمر كان يجهله الإنسان حتى كشف عنه العلم الحديث وهذا طبعا مثل رائع يبين التطابق التام بين العلم والدين فى الإسلام .

وقد وردت الآيات فى أكثر من سورة تشير إلى تلازم

السحب والمطر والرياح بما يؤكد هذا التفسير .

ففى سورة الأعراف يقول الله تعالى (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمة حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) .

وفى سورة الروم يقول تعالى (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته) .

وفى سورة الفرقان يقول تعالى (وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا . لنحيي به بلدة ميتا ونُسقية مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا) .

وفى سورة فاطر يقول عز شأنه :

(والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) .

وأما قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) .

هذه الآية عطف علي (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين) داخل فى حكم التذكير بأحوال يوم القيامة . (تحسبها جامدة)

أى ثابتة فى أماكنها (وهى تمر مر السحاب) اى فى تحلل أجزائها وانتفاشها كما فى قوله تعالي (وتكون الجبال كالعهن المنفوش). (صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون) أى فيُجازيهم عليها .

هذا هو ما ذهب إليه كثير من المفسرين ، قالوا المراد بهذه الآية ، تسيير الجبال الذى يحصل يوم القيامة ، حينما يبيد الله تعالى العوالم كما قال تعالى (وسيرت الجبال فكانت سرابا) وكما قال تعالى : (وإذا الجبال نسفت) وقال : (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) وقال (وسُيرت الجبال فكانت سرابا) .

وأما قوله تعالى (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم....) فإن فى هذا الوعيد وجوها من التاويل أفضلها وجهان .

الأول : إنه وعد دنيوى عنى به نصر الرسول صلوات الله عليه ، عليهم .

والمعنى ، إن أولئك الصم عن سماع الآيات العمى عن التدبر فيها الجاحدين لها ، سيأتيهم أنباء حقية ما كانوا يدعون إليه من نصر الداعى وهو الرسول وأتباعه وتكثير سوادهم حتى يظهروا على عدوهم . وذلك بأن تدب إليهم من المؤمنين دابة عظمى تملأ

السهل والجبل ، تزلزل أركانهم وتهدم بنيانهم وتقوض خيامهم وتدك أعلامهم . فتكلمهم حينئذ بلسان الحال أو المقال بأنهم إنما أخذوا بالعقاب وحل بهم شديد العذاب لضلالهم وإضلالهم العباد . فإن الإيمان دعامة الصلاح والإصلاح وقد سبقت كلمته تعالى لعباده المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون وهذه الآية عطف على قوله تعالى (إنك لا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلاّ من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) .

الوجه الثاني : هو ما نقله الراغب في مفرداته فقال :

وقيل عنى بالدابة الأشرار الذين هم فى الجهل بمنزلة الدواب . فتكون الدابة جمعا اسما لكل ما يدب » .

ولعل الآية كقوله تعالى (حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين) .

فإن يأجوج ومأجوج كالدابة لما يغطى بدبيبه وجه الأرض ، فهو مثل للكثرة .

فأنت ترى من كل ذلك من الأمثلة أنه لا حاجة إلى الإغراق

فى الفهم والتأويل البعيد فى الإدراك إذ لا يتوقف فهم الآيات كما رأيت على مثل توجيهاتهم ، والالتجاء إلى المخترعات الحديثة والنظريات العميقة . بل أسلم طريق فى ذلك هو السلوك فى فهمها مسلكا سهلا يتمشى مع ما تدل عليه الألفاظ دلالة لغوية، ويتلاءم مع سياق الآيات تلاؤما طبيعيا فى غير ما توسع ولا إطلاق مما لم تعرفه اللغة ، ولم يستعمل فيها ، ومما لا حاجة بالتشريع والهداية إليه .

وأما ما استدلوا به من قوله تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) فقد روى عن ابن عباس فى تفسير الكتاب هنا أنه أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ ، وهو خَلْق من عالم الغيب أثبت الله فيه مقادير الخلق ما كان منها وما يكون بحسب النظام المعبَّر عنه بالسنن الآلهية .

ومنهم من يفسر الكتاب بالعلم الإلهى المحيط بكل شىء شبه بالكتاب بكونه ثابتا لا يُنسى .

وقال بعضهم: إن المراد بالكتاب هنا القرآن . والمراد بقوله (من شىء) الشىء الذى هو من موضوع الدين الذى يرسل به الرسل وينزل به الكتب وهو الهداية، لأن العموم فى كل شىء بحسبه أى ما تركنا فى الكتاب شيئاً من ضروب الهداية التى ترسل الرسل لأجلها إلا وقد بيّناه فيه .

وفريق آخر أنكر هذا النوع من التفسير — وهو التفسير العلمي — ولم يأخذ بمثل هذه التوسعات فى تحميل الآية مالا تحتمله مستدلين على مذهبهم :

أولا : بان هذه الشريعة المباركة أمية لأن أهلها كذلك فلا يحتاج فى فهم كتابها وتعرف أوامرها ونواهيها ، إلى التغلغل فى العلوم الكونية والرياضيات الهندسية وما إلي ذلك .

ثانياً : أن هذا القرآن موجه إلى من نزل فيهم من العرب وهم ليس لهم عهد بهذه العلوم التي لم تعرفها الدنيا، إلا بعد ماجازت آماداً فسيحة، فإذا قصد القرآن إليها وآياته لاتفهم إلا بالوقوف عليها، يكون حينئذ كلاما غير مطابق لمقتضى الحال . وحاشاه أن يكون كذلك . فوجب إذن أن نقف بعباراته عندما فهم العرب الخلص ولا نتجاوز ما ألفوه من علومهم وأدركوه من معارفهم.

ثالثاً : أن هذا الكتاب لم تكن مهمته أن يتحدث إلى عقول الناس عن مشكلات الكون وحقائق الوجود العلمية وإنما هو كتاب هداية وإرشاد للناس فى حياتهم الدينية والدنيوية .

رابعاً : أن النظريات العلمية والحقائق الطبيعية عرضة للتبديل والتغيير ، فإذا أخذنا بما فى هذا النوع من التفسير كان فهم الآيات أيضا عرضة للتغيير والتبديل مما يبعث على الشك

ويؤدى إلى الريبة والبلبلة والاضطراب .

والرأى الذى نميل إليه هو أننا فى حاجة شديدة إلى أضواء من العلم تكشف لنا عن حكم وأسرار جاءت بها الآيات الكريمة ، ولا ضرر من عدم قصر فهمه على ما عند العرب فى علمها ومألوف معارفها . لأن القرآن أنزل للناس كافة يأخذ منه كل على قدر استعداده وحاجته، مادام ذلك لا يتنافى مع ما قصده القرآن من الهداية، وما يهدف إليه من الإرشاد . فكم من حكمة فيه إذا مستها يد العلم أسفرت أسرارها وظهرت أنوارها وأبانت عن سر إعجازها وسحر بيانها .

فمن ينكر أننا فى حاجة ملحة إلى علم الأجنة يحدثنا عن قوله تعالى (فلينظر الإنسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) وإلى علم الحياة يبين لنا أدوار الجنين فى قوله تعالى (ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما) ومن ذا يحدثنا إذا لم يحدثنا الطب عن قوله تعالى (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن) فيبين لنا مبلغ هذا الأذى وهل هو جسمى او عصبي أو مزاجى أو نفسى .

وهنا نذكر تفسيراً معاصراً لهذه الآية لم يسبق فقد مسّته يد العلم فكشفت عن سر هذا النهى . قال ذلك الدكتور المعاصر فى كتابه « وحى وبيان من لب القرآن) .

بعد أن بيّن الله جل جلاله أسس الزواج وشرّع وسائله نجده قد تولى فى كتابه الحكيم تلك العلاقة الوثيقة فأبرز أهميتها ونأى بها عن أن تكون علاقة غريزية بهيمية لا رابط ولا هدف لها .

وقد بدأ الله الحديث فى هذا المجال أول ما بدأ بالتركيز علي إعلاء شان العلاقة الجنسية بين الرجل وزوجته،وتهذيبها والسمو بها من طابع الغريزة السافرة إلى طابع التعقل والتبصر والتدبر فنزلت آية المحيض تمنع الرجال من مباشرة نسائهم أثناء حدوثه كمثل صادق ملزم بتحديد الأوقات المناسبة لمباشرة النساء التى يراعى فيها قبول المراة ، كما يراعى فيها شعور الرجل وهى فترة إجبارية علىّ الرجال يعاملون نساءهم فيما يماثلها من فترات بأدب القرآن الذى شرع فى هذه الآية .

والمحيض هو حدوث حيض المرأة خلال فترة معينة ، تتعاقب عليها مرة كل شهر كعملية حيوية تُمِدُّ الرحم للحمل فيما لو تم تلقيح البويضه التى تتكون عقب انتهائه .

والأذى كلفظ عام يحتمل فى هذه الآية معنيين :

أذى بمعنى إيذاء وضرر، وأذى بمعنى قذر ممجوج تعافه النفس.

والمواطأة أثناء فترة الحيض فيها هذان النوعان من الأذي لكل من المرأة والرجل، إذ يتسبب عنها فى المرأة زيادة فى احتقان جهازها التناسلي بما قد تنشأ عن ذلك من آلام أو مضاعفات كنزف دموى او اضطراب فى دورة الحيض أو التهابات بالأعضاء التناسلية خاصة تجويف الرحم بالحيض، من سهولة التلوث بالجراثيم الخارجية التي تجد فى دم الحيض مزرعة خصبة لنموها وتكاثرها .

هذا فضلا عن أن إحساس المرأة بالألم إذا ما بوشرت أثناء الحيض نظراً لما تعانيه من احتقان باعضائها التناسلية، يسبب لها إرهاقاً عصبيا، إذ أن اعضاءها تكون حينذاك مرهقة غير طبيعية كما أن رغبتها للمباشرة الجنسية تكون خاملة راكدة فى هذه الفترة بسبب حدوث شيء من الاضطراب فى إفراز الهرمونات الداخلية لبعض الغدد الصماء .

وهذا من شانه أن يولّد فى نفس المرأة حالة جفاء نفسى بالنسبة للرجل إذا ما لمست فيه هذا الخضوع المشين للغريزة الجنسية الجامحة المجردة عن الإنسانية، وتلك النزعة البهيمية

البحتة التي ينبوعها الذوق السليم، فترى فيه حيواناً نهماً لا يكترث بشعورها ولا يحس بالمها ولا يبالى بتهيئة أسباب الراحة اللازمة لها فى هذه الفترة العصبية ولا يقدر ما لتلك العلاقة الجنسية التى تربط بين الزوج وزوجه بأوثق رباط من واجب الرعاية ودواعي البعد عن التكالب الممجوج والنزوة الطائشة.

وليس الأذى الذى يلحق بالرجل باقل مما يلحق بالمرأة إذا ما أتاها فى أثناء المحيض . إذ قد يصاب بالتهاب صديدى بمجرى البول نتيجة لانتقال بعض الجراثيم المتأقلمة فى جهاز المرأة التناسلى وتطورها إلى جراثيم ضارة ، بعد انتقالها من محيطها الأصلى، إلي مجال خصب جديد محدثة له هذا الأذى .

مَثَلُ ذلك ما قد يحدث من التهاب فى مجرى البول للرجل فى حالة اللواط إذا ما انتقلت إليه جراثيم الأمعاء المتأقلمة فتطورت به . وناهيك عما ينتاب الرجل من شعور عميق بالاشمئزاز الذي قد يسبب له عقدة نفسية تؤثر على قواه الجنسية .

لذلك كان لزاما أن يأمر الله المحيط العليم الحكيم، باعتزال النساء فى المحيض والابتعاد عن غشيانهن حتى يطْهُرن بانقطاع دم الحيض والاغتسال من آثاره .

كل هذه الأسرار مشحونة في كلمة واحدة ومطوية فى لفظة

(أذى) فى صورة مطلقة من اللغة شاملة عامة من طريق الموسيقى في اللفظة وهو التنوين فى (أذًى) إذ هو للشمول والتعميم وهذا أسلوب من الإعجاز لا يستطيعه إلا الحكيم الخبير .

وإليك آيةً لا يمكن الكشف عن معناها كشفا يستريح إليه الباحث وتطمئن إليه النفس، إلا بعد أن امتدت يد العلم إليها فوضحت غامضها وبيّنت مبهمها . وقد اختلف فيها المفسرون ولم يصلوا إلى ما يشفى الغليل .

أما العلم الحديث فيقول :

هذه الآية الكريمة رائعة فى مبناها عظيمة فى معناها، شأنها فى ذلك شأن القرآن الكريم كله وهى تتكشف عن معجزة كبيرة من معجزاته حيث طابقها العلم الحديث، بينما نزلت من نحو أربعة عشر قرنا . وقبل أن يخلق علم تكوين الجنين وقبل أن يوجد علم وظائف الأعضاء .

ومرجع هذا الإعجاز هو أن هذه الآية الكريمة تشير بصراحة إلى رابطة وثيقة بين ماء الرجل وصلبه وبين ماء المرأة وثديها حيث كنّت عن منبع ماء الرجل بكلمة الصلب كما أنها كنت عن منبع ماء المرأة بالترائب وهى عظام الصدر .

والذى دعى إلى الخفاء فى هذه الآية أن ماء الرجل لا صلة

له ظاهرة بصلبه ، كما أن ماء المرأة لا صلة له واضحة بالترائب فليست هناك قناة تتدلى من صلب الرجل تحمل ماءه إلى الرحم كما أنه ليست هناك أية قناة تجرى من ترائب المرأة حاملة ماءها إلى رحمها، حيث يلتقى الماءان ويبدأ تكوين الجنين كما هو معلوم .

فلما ألقى العلم أضواءه على هذه الآية بان سرها وكشف معناها وظهر إعجازها العلمى .

فالمعروف علميا أن ماء الرجل يتكون من سوائل تفرزها الخصية والبروستاتة والحويصلات المنوية وبعض الغدد المخاطية بمجرى البول . كما أن ماء المرأة يفرز من أعضاء تناسلها على أن هذا لم يكن معلوما قديما .

وماء الرجل لا قيمة تناسلية له بغير الحيوانات المنوية التى تتكون فى الخصية كما أن ماء المرأة لا قيمة تناسلية له بغير « البويضة » التي يحملها ماؤها .

فمن هذه الحيوانات المنوية فقط ، ومن هذه البويضات فقط يبدأ تكوين الجنين وإذن يكون إطلاق الآية الكريمة كلمة (ماء) على هذه الحيوانات والبويضات من قبيل إطلاق الكل على الجزء .

والآية الكريمة تقصد — والله تعالى أعلم — بكلمة الصلب

ظهر الرجل المقصود به فقرات العمود الفقرى التى يعبر عنهما فى كلام العامة بسلسلة الظهر . المقصود بها النخاع الشوكى الذى يملأ جوفها جميعا إذ فى هذا النخاع الشوكى الذى هو جزء ممتد من المخ داخل هذه الفقرات من أعلى العنق إلى آخر سلسلة الظهر ،وفى قطاعه القطنى، يوجد المركز المهيمن على أعضاء تناسل الرجل،وهو يستمد قوته من المركز الأعلى بالمخ وبدونه لا يتكون ماء ولا يحصل تناسل.وبهذا يكون تفسير خروج ماء الرجل من صلبه.وتكون الآية الكريمة قد كنت عن هذا المركز بالمنطقة التى يوجد بها وهى الصلب كما كنت عن الخصية وما إليها من الأجزاء المذكورة التى تشترك معها في تكوين الماء بهذا المركز الذى يهيمن عليها . ويكون المعنى أن الماء يخرج من الخصية وما إليها التى يهيمن عليها المركز الخاص بالنخاع الشوكى الموجود فى فقرات صلب الرجل وباستحضار هذا تكون الآية الكريمة « يخرج من بين الصلب » .

أما من حيث البويضة التى توجد فى ماء المرأة ولا يتكون الجنين بدونها فقصتها ومرحلتها كالآتى :

يوجد لكل أنثى رحم ومبيضان فى وسط حوضها ويقع أحد هذين المبيضين فى الجهة اليمنى من الرحم ويقع الآخر

فى جهته اليسرى، ويتصل كل مبيض بالرحم بوساطة قناة وفى كل مبيض خزائن عديدة دقيقة تسمى الحويصلات وتنمو واحدة من هذه الحويصلات وتبلغ منتهي نموها فى نحو شهر وكلما نمت بعدت عن جسم المبيض الذى هى فيه واقتربت من سطحه حتى إذا تم نموها انفجرت على سطح هذا المبيض وخرجت منها بويضة تدخل القناة المذكورة وتصل إلى الرحم حيث تاخذ طريقها إلى حيث ماء الرجل المشتمل على الحيوانات المنوية التى تأخذ هى أيضاً طريقها إلى هذه البويضة فيلتقيان، فيدخل رأس أحد هذه الحيوانات المنوية داخل هذه البويضة تاركا ذيله خارج البويضة فلم يكن هذا الذيل إلا اداة لحركة الحيوان حتى ياخذ سيره ليلتقى بالبويضة فيحصل التلقيح ويبدأ تكوين الجنين فى جسم الرحم وهو (القرار المكين) الذى أشار إليه القرآن الكريم (ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) ولكن إذا لم يلتقيا تموت الحيوانات والبويضة جميعا ولا يحصل حمل وإنما يحصل الحيض الشهرى للمرأة .

ونرجع إلى الحويصلة التى انفجرت وخرجت منها البويضة لنرى ما يحل بها ، فهذه الحويصلة بعد انفجارها تمتلىء دما نتيجة للتمزق الذى يصحب الانفجار ثم تتكون بها مادة صفراء موضع

الدم تسمى «الجسم الأصفر» وهذا الجسم الأصفر مع هرمونات المبيض يكون العلاقة المتينة بين البويضة وبين ترائب المرأة المقصود بها — والله تعالى أعلم — ثديا المرأة الموضوعان على الترائب وهي عظام الصدر كما قصدت الآيات الكريمة بصلب الرجل نخاعه الشوكي .

فإذا لم تلتق البويضة بحيوان منوي يلقحها ، ماتت ومات الحيوان كما ذكر ، وهذا ما يحصل لهذا الجسم الأصفر أيضا فإنه ينكمش ويمتص ولا يحصل من وراء ذلك أي حدث سوى الحيض الشهري للمرأة .

أما إذا التقت البويضة بحيوان منوي ولقحها وتكوّن جنين منهما، فعند ذلك يكون لهذا الجسم الأصفر شأن آخر غاية في الخطورة وذلك بوساطة هرمونه الذي يظهر تأثيره في ثلاث نواح (يشترك معه فيها هرمون المبيض نفسه) :

فهو يمنع تكوين حويصلات أخرى في المبيضين . وحكمة ذلك هي عدم تكوين بويضات أخرى حتى لا يحصل حمل آخر بعد هذا الحمل طوال مدته، وهو يهيء الرحم لسكنى الجنين فيه وحفظه وتغذيته ونموه . ويظهر ذلك في تضخم الرحم ونمو أوعيته الدموية وغشائه المخاطي حيث تكون المشيمة .

وهو كذلك يهيء الثديين لإفراز اللبن وللرضاعة بعد الولادة ولذلك يكبر حجم الثديين فى الحمل على ماهو معلوم وظاهر. ومن هنا تظهر العلاقة الوثيقة بين البويضة المكونة لنصف الجنين وبين الثديين المعبر عنهما بالترائب. (جاء فى لسان العرب: الترائب عظام الصدر وقيل ما بين الثديين والترقوتين).

فالآية الكريمة قالت (من بين الصلب والترائب) فالمقصود من ذلك: من بين خصية الرجل ومبيض المرأة فعبرت عن الخصية بالصلب الذى فيه النخاع الشوكى الذى له صلة وثيقة بوظيفة الخصية.

وعبرت عن المبيض بالترائب المقصود بها الثديان اللذان لهما صلة وثيقة بوظيفة المبيض.

وبذلك يكون تعبير القرآن الكريم بقوله (من بين الصلب والترائب) تعبيراً دقيقا فيه كناية من أبلغ الكنايات وأرقاها وهو ينطبق كل الانطباق على نظرية العلم الحديث.

ومما عبر عنه القرآن الكريم ولم ينكشف لجمهور الناس انكشافا تاما إلا بعد نزوله بقرون، ما جاء فى قوله تعالى (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة).

يقول الألوسى[1] فى تفسيره لهذه الآية: (من دابة)

(١) توفى سنة ١٢٧٠ هـ.

اى حيوان له دبيب وحركة . وظاهر الآية وجود ذلك فى السموات وفى الأرض وبه قال مجاهد .

واعترض ذلك ابن المنير وادعى أن الأصح كون الدواب فى الأرض لاغير . ومافى أحد الشيئين يصدق أنه فيهما فى الجملة. فالآية على أسلوب (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وإنما يخرج من الملح . وذلك لقوله تعالى فى البقرة (وبث فيها من كل دابة) فإنه يدل على اختصاص الدواب بالأرض لأن مقام الإطناب يقتضى ذكره .

والجواب أن التى فى البقرة لما كانت كلاما مع الغبى والفهم والمسترشد والمعاند جىء فيه بما هو معروف عند الكل وهو بث الدواب فى الأرض. وأما هنا فجىء به مدمجا مختصرا لما تكرر فى القرآن ولاسيما فى هذه السورة من كمال قدرته على كل ممكن فقيل (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة) وقد ثبت فى صحاح الأحاديث ما يدل على وجود الدواب فى السماء . ولا يبعد أن يكون فى كل سماء حيوانات ومخلوقات على صور شتى وأحوال مختلفة لا نعلمها .

« وأهل الأرصاد اليوم يتراءى لهم بوساطة نظاراتهم مخلوقات فى جرم القمر لكنهم لم يحققوا أمرها لنقص ما فى

الآلات على مايدعون. ويحتمل ان يكون فيما عدا القمر و نفى ذلك ليس من المعلوم من الدين بالضرورة حتى يضر القول به » .

وقال مفسر آخر أحدث عصراً من الألوسي فقد توفى سنة ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م) لعمرى إن هذه الآية التي نزلت على محمد ﷺ قبل ألف وثلثمائة وعشرين سنة — (وهى سنة تأليف هذا التفسير — لآية لأهل هذا العصر وأية آية ! آية لأهل العلم والفلسفة الذين يبذلون الأموال والأرواح بلا حد ولا حساب ليتوصلوا إلى معرفة سر من أسرار الكائنات . ومع هذا الجد العنيف والجهد المتواصل منذ ثلثمائة سنة لم يتوصلوا إلا بالظن إلى ما أنبأت به هذه الآية . وبدأ البعض منهم يفكرون بإيجاد الوسائل للمخابرة بالكهربائية مع سكان المريخ الذى هو أقرب السيارات إلينا وليس ذلك بالمستحيل فنّا . ويستدل على إمكانيته من آخر الآية نفسها وهو قوله تعالى (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) . فلا يبعد أن يتخابرا ويجتمعا فكرا إذا لم يجتمعا جسما . فلينظر الفلكيون إلى ما حوته هذه الآية المكنوزة فى القرآن وليعلم المعجبون منا بالعلوم العصرية الضاربون صفحا عن العلوم الإسلامية ما فى كتاب الله من الحكمة والبيان » .

وقال ايضا :

لا يخفى أن القرآن العظيم نزل لبيان الحق وتعليم الدين أولا بالذات لكن تمهيدا لهذه السبيل أتى بشذرات من العلوم الفلكية والطبيعية ، وصرف بصائر الناس إلى التفكير فى خلق السموات والأرض وماهن عليه من الإبداع ، فوجه أبصارهم إلي التأمل فى خلق الإنسان وما هو عليه من التركيب العجيب إلى غير ذلك من الأمور الفلكية والطبيعية . ولا يخفى ما كانت عليه هذه الآلات فى زمنهم من النقصان،لاسياعلم الفلك ، فهم معذورون إذا لم يفهموا معانى هذه الآيات التى تحير عقول فلاسفة هذا العصر المتضلعين بالعلوم العقلية لذلك لم يفسروا هـذه الآيات حق تفسيرها بل أولوها وصرفوا معانيها عن الحقيقة إلى المجاز والكناية » .

ثم قال :

« والظاهر أن القول بوجود الحيوانات فى هذه الكواكب صحيح » .

فالحق أن كل ما يساعد من العلوم على الكشف عن الأسرار الكونية والدلالة على قدرة الصانع الحكيم والإبانة عن مبلغ آياته ونعمه ولا يتعارض مع أسلوب اللغة ومألوف تعبيرها من

غير إغراب ولا تكلف ولا إغراق فى التاويل وإسراف فى التجديد فهو مما يجوز ان يستخدم فى فهم آيات القرا ن الكريم فهو لا تفنى عجائبه ولاتحصى أسراره . وهو قد أنزل ليكون كتابا خالدا مشتملا على سعادة المجتمع الأفضل مهما تطور وتجدد .

وقبل أن نختم بحثنا هذا نرى لزاما علينا أن نشرح كلمة قد تخفى علي كثير من قرائنا وهي كلمة (الهرمونات) التى وردت فى هذا البحث :

الهرمانات جمع (هرمون) والهرمون هو مادة كيميائية تتكون فى أحد أعضاء الجسم وحينما ينقل بالدم من هذا العضو إلى عضو أو أعضاء أخرى بالجسم لها صلة أو علاقة بذلك العضو يحدث نشاطا فى وظيفة هذا العضو أو هذه الأعضاء الأخرى .

ثقافة المفسر

هذه هى النقطة الثالثة والأخيرة فى التقدمة . إن تفسير القرآن الكريم ليس بالأمر السهل الميّن الذى يُقدم عليه كل من تحدثه نفسه أو يكون له إلمام بعلوم يظنها تؤهله لأن يقتحم هذا الميـدان من غير تسلح بأدوات خاصة وتدرّع بآلات ماضية .

وذلك لأنه كتاب اشتمل على خيرى الدنيا والآخرة ففيه هدى وموعظة وأحكام ونظام ومكارم أخلاق وسنن وآداب ، وفيه شرائع لحقوق الأسرة وتبيان لواجيات الأمة بل فيه من كل نوع من أنواع التشريعات شخصيها ومدنيها وتجاريها ودوليها عامها وخاصها ، وفيه إشارات لأسرار علمية ومباحث فنية، فيه تاريخ وقصص وطب وفلك ، فيه شفاء لما فى الصدور ، ودواء لأدواء النفوس (يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) .

فاى عقل كبير ينهض باعباء هذه التعاليم ، وأى جهد إنسانى يستطيع أن يوفى تفسير هذه السنن . بل لا بد من تضافر جهود

العلماء وتكاتف همم الباحثين وتعاون قوى المفكرين كل فى ميدان علمه ، ومجال بحثه وتخصصه .

على أن هذا لا يُعفى أحداً من النظر فى آياته ، والتدبر فى حكمه وأسراره ، والتفهم لمعارفه ومواعظه ولا فرق بين عالم وفيلسوف وطبيب وفلكى ورياضى ومتعلم وأمّى ، إذ كل أفراد النوع الإنسانى مطالب بالعمل به ولا يكون العمل إلا بعد الفهم بقدر ما تسمح به الطاقة ويسعه الجهد .

يقول الزركشى فى كتابه « البرهان » وهو مصرى من علماء القرن الثامن الهجرى :

ينقسم القرآن العظيم إلى :

ما هو بيّن بنفسه بلفظ لا يحتاج إلى بيان منه ولا من غيره وهو كثير ومنه قوله تعالى (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) .

وقوله (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله

كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما) .

وقوله تعالى (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

فيكفى العامى من فهم هذه الآيات مايعطيه ظاهرها وهو أن الذين جُمعت أوصافهم فى الآيات الكريمة لهم الفوز والفلاح عند الله تعالى ، ويكفى فى معرفة الأوصاف أن يعرف معنى الخشوع والإعراض عن اللغو ، وما لا خير فيه والإقبال علي ما فيه فائدة له دينوية أو أخروية وأن يعرف معنى بذل المال والوفاء بالعهد وصدق الوعد والعفة عن إتيان الفاحشة . وإن من فارق هذه الأوصاف إلى اضدادها فهو المعتدى على حدود الله المتعرض لغضبه .

وفهم هذه المعانى مما يسهل على المؤمن من أى طبقة كان ومن أهل أى لغة كان .

وينقسم التفسير إلى ما ليس بيّنا بنفسه فيحتاج إلى بيان . وبيانه إما فيه فى آية أخرى أو فى السنة لأنها موضوعة للبيان . قال تعالى (لتبيّن للناس ما نزّل إليهم) .

والثانى كثير من احكام الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك .

كقوله تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده) ولم يذكر كيفية الزكاة ولا نصابها الذى تجب فيه الزكاة،ولا شروطها ولا أحوالها ولا من تجب عليه ممن لاتجب عليه وكذلك لم يبين عدد الصلاة ولا أوقاتها .

وكقوله تعالى (ولله على الناس حج البيت) لم يبين أركانه ولا شروطه ولا ما يحل فى الإحرام ومالا يحل وغير ذلك . فقد أرشدنا النبى ﷺ إلى كل ذلك بما ثبت فى الصحيحين .

وقد يكون بيانه واضحاً وهو أقسام .

أحدها : أن يكون عَقِبَه كقوله تعالي (الله الصمد) تفسيره جاء عقبه فى قوله تعالى (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) .

وكقوله تعالى (إن الإنسان خلق هلوعا) قال ابو العالية تفسيره (إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا) .

الثانى : أن يكون بيانه منفصلا عنه فى السورة معه او فى غيره كقوله تعالى (مالك يوم الدين) وبيانه فى سورة الانفطار (وما أدراك مايوم الدين . ثم ما أدراك مايوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله .)

وكقوله تعالى فى سورة الحج (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير . وهدوا إلى الطيب من القول) وقد فسره فى سورة فاطر (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور)

وقوله تعالى فى سورة يونس (لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) فسرها فى موضع آخر من سورة فصلت (تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) .

هذه هى المرتبة الأولى من مراتب التفسير التى يبين فيها بالإجمال ما يُشرب القلب عظمة الله وتنزيهه ، ويصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير . وهذه المرتبة متيسرة لكل أحد (ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر) .

وهذه المرتبة هى التى تليق بالعوام والجماهير والأميين غير

المثقفين ثقافة عالية وليس لهم من الاستعداد الذهنى ما يساعد على التدبر فى أسراره والكشف عن خفاياه .

أما المرتبة العليا فى التفسير فهى التى تليق بالنفوس العالية والأذهان الثاقبة فيبحثون فيما دق فهمه وخفى سره وينظرون بما منحوا من مواهب وما حصلوا من معارف فى مرامى آيه ودقائق معانيه مما يغمض مثله على الجمهور ويدق مسلكه على العامة .
قال تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) .

ولا شك أن المطالبين فى هذه الآية وأمثالها بالتدبر هم أولو الألباب وذوو العقول الناضجة والأذهان المشرقة .

ولابد لتحصيل هذه المرتبة من وسائل يجب تحصيلها وأدوات ينبغى توفرها ، لأننا إذا كنا لا نستطيع أن نفهم علما من العلوم من غير أن نتوسل إلى ذلك بطائفة من المقدمات وجملة من المبادىء والعلوم ، فكيف بكلام الله تعالى وهو فى الذروة من البلاغة والقمة من التعبير والصياغة .

فمن أراد تفسير الكتاب العزيز وجب عليه أن يكون ملما :
أولا : بعادات العرب فى أقوالهم وأفعالهم وما يتصل بالبيئة المادية والمعنوية التى ظهر فيها القرآن وعاش . من جبال وصحارى

ومن نظام أسرة أو قبيلة وحكومة فى أى درجة كانت وعقيدة بأى لون تلونت ، فكل ما تقوم به الحياة الإنسانية لهذه العروبة وسائل ضرورية لفهم هذا القرآن العربى المبين .

فمن عرف عادات العرب فى الحج فى الجاهلية استطاع أن يفهم آيات الحج وسهل عليه أن يدرك معنى قوله تعالى (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) .

ومن درس عصبية العرب لتقاليدهم وعاداتهم وشدة تمسكهم بما ورثوه عن آبائهم حتى أصبح جزءاً من مجتمعهم وحياتهم وكانوا يعدون ذلك فضيلة لا معدي عنها ، ولو أدى ذلك بهم إلى الحروب وإراقة الدماء والمواقف المحرجة .

من درس ذلك استطاع أن يفهم ما جاء فى القرآن الكريم من آيات عديدة تشير إلى هذه العصبية فى معرض التنديد والتقريع وهى تصور بأساليبها المختلفة شدة تمسك العرب قبل البعثة بتقاليدهم المتوارثة أبا عن جد وعدم العدول عنها مهما ظهر باطلها ووضح ضررها وشرها .

قال تعالى :

١ — «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع

ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون .

٢ — وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون .

٣ — وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بهـا .

وقد بلغ من قوة هذه العصبية فيهم أن أصبحت دينا وأنهم أخذوا يرون أن ماهم عليه من عادات وتقاليد هو من أوامر الله كما حكت الآيات التالية .

١ — سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولاحرمنا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنـا. إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون .

٢ — وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شيء .

فهذه الآيات وغيرها تفسر لنا شيئا من ذلك الموقف الشديد المؤذى الذى وقفه أهل مكة من الدعوة الإسلامية وصاحبها

وضعفاء المسلمين فإن عصبية التقاليد كانت من العوامل المؤثرة فى ذلك .

ثانيا : بالوقوف على أسباب النزول . فإن القرآن الكريم قسمان :

قسم نزل من الله ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة وإنما هو لمحض هداية الخلق .

وقسم نزل مرتبطا بسبب من الأسباب الخاصة تعرف بأسباب النزول . فسبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه .

ولقد زعم بعض الناس الا فائدة من الإلمام بأسباب النزول وأنها لا تعدو أن تكون تاريخا للنزول أو جارية مجرى التاريخ . وقد أخطأ هذا البعض فيما زعم فإن لأسباب النزول فوائد متعددة منها معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل كالآيات التى نزلت فى تحريم الخمر وتحريم الربا .

ومنها الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال عنها فهى كالمذكرة التفسيرية فى القوانين الوضعية . حتى لقد قال الواحدى « لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها » .

وقال الشاطبي فى كتابه « الموافقات » .

« معرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد علم القرآن . والدليل على ذلك أمران .

أحدهما — أن علم المعانى والبيان الذى يعرف به إعجاز نظم القرآن فضلا عن معرفة مقاصد كلام العرب إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال وهى حال الخطاب من جهة موضوع الخطاب ثم حال المخاطب أو حال من جاء الخطاب على لسانه . إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين ، ثم بحسب المخاطبين وبحسب غير ذلك كالاستفهام مثلا فإن لفظه واحد ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك ، وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز . ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة وعمدتها مقتضيات الأحوال . وليس كل حال ينقل ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول . وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة ، فات فهم الكلام جملة او فهم شئ منه ومعرفة أسباب النزول رافعة لكل مشكل فى هذا النمط — فهى من المهمات فى فهم الكتاب — ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال .

وثانيهما — أن الجهل بأسباب النزول موقع فى الاشتباه

والاشكال ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف . مثال ذلك :

ما جاء فى صحيح البخارى عن علقمة بن وقاص أن مروان بن الحكم قال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل أمرئ فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لَنُعَذَّبَنَّ اجمعون ؟ فقال ابن عباس : ما لكم ولهذه إنما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شئ فكتموه إياه وأخبروه بغيره فاروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم . ثم قرأ ابن عباس : (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون . لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم) .

فهذا السبب بين ان المقصود من الآية غير ما ظهر لمروان .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) يقول الزركشى فى « البرهان » .

إنا لو تركنا ومدلول اللفظ لاقتضى أن المصلى لا يجب عليه

استقبال القبلة سفرا ولا حضرا وهو خلاف الإجماع فلا يفهم مراد الآية حتى يعلم سببها .

وذلك انها نزلت لما صلى النبي ﷺ على راحلته وهو مستقبل من مكة إلى المدينة حيث توجهت به، فعلم أنها فى نافلة السفر او فيمن صلى بالاجتهاد وبان له الخطأ .

ومن ذلك قوله تعالى (إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم) فإن سبب نزولها أن قوما أرادوا الخروج للجهاد فنعهم أزواجهم وأولادهم فأنزل الله تعالى هذه الآية . ثم انزل فى بقيتها ما يدل على الرحمة وترك المؤاخذة فقال: (وأن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم) .

وهنا نذكر قاعدة أصولية مهمة حتى لا ينساها من يبحث فى أسباب النزول وهى :

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ثالثا : معرفته للناسخ والمنسوخ .

ذكر السيوطي فى « الإتقان » أن الأئمة أجمعوا على أنه لا يجوز لأحد أن يفسّر كتاب الله إلا بعد ان يعرف فيه الناسخ والمنسوخ .

وذكر أبو جعفر النحاس المصرى فى كتابه « الناسخ والمنسوخ » قال:

دخل على بن أبى طالب رضى الله عنه المسجد فإذا رجل يخوّف الناس وقد تحلّق الناس عليه يسألونه وهو يخلط الأمر بالنهى والإباحة بالحظر، فقال له علىّ: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال لا: قال هلكت وأهلكت! أبو مَن أنت؟ فقال: أبو يحيى. فقال أنت أبو: اعرفونى! وأخذ أذنه ففتلها وقال: لا تقص فى مسجدنا بعد.

فعلم المفسر بالناسخ والمنسوخ يجعله يدرك المحكم من غيره. وإلا اختلط عليه الأمر وظهر التعارض وخفى عليه كثير من الحكم الإلهية فى تمهيد الأحكام وتدرج التشريع.

مثل كون القبلة كانت بالمدينة ببيت المقدس ثم صارت إلى الكعبة. وكحِلّ نكاح المتعة ثم تحريمه، وأن الظهار كان طلاقا ثم صار غير طلاق. إلى غير ذلك مما فيه تأنيس للنفوس وتأليف للقلوب وتدرج في التشريع.

وهنا ينبغى أن نذكر من يتعرض للتفسير:

أولا: يقول ابن الحصار بإزاء الناسخ والمنسوخ. « إنما يرجع فى النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أو عن صحابي يقول آية كذا نسخت كذا . وقد يحكم بالنسخ عند وجود التعارض المقطوع به مع علم التاريخ ليعرف المتقدم والمتأخر. ولا يعتمد فى النسخ قول عوام المفسرين بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح ولا معارضة بينة، لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم تقرر فى عهده صلى الله عليه وسلم والمعتمد فيه النقل والتاريخ دون الرأى والاجتهاد » .

الأمر الثانى: الذى يجب التنبه له بصدد الناسخ والمنسوخ هو أنه قد يقع فى القرآن تفصيل بعد إجمال أو تقييد بعد إطلاق أو تخصيص بعد تعميم بيد أن ذلك شىء غير الزعم بان هناك آيات بطل حكمها أو وقف تنفيذها .

الأمر الثالث : إن الذى أورده المكثرون على أنه قسم من النسخ ليس من النسخ فى شىء ولا من التخصيص ولا له بهما علاقة بوجه من الوجوه وذلك مثل قوله تعالى (ومما رزقناهم ينفقون ، وأنفقوا مما رزقناكم) ونحو ذلك قالوا أنه منسوخ بآية الزكاة .

قال السيوطى وليس كذلك بل هو باق . أما الأولى فإنها خبر فى معرض الثناء عليهم بالإنفاق وذلك يصلح أن يفسر بالزكاة

وبالانفاق على الأهل وبالإنفاق فى الأمور المندوبة كالإعانة والإضافة وليس فى الآية ما يدل على أنها نفقة واجبة غير الزكاة والآية الثانية يمكن حملها على الزكاة وقد فسرت بذلك .

وكذا قوله تعالى (أليس الله بأحكم الحاكمين) قيل إنها مما نسخ باية السيف وليس كذلك لأنه تعالى احكم الحاكمين أبدا لا يقبل هذا الكلام النسخ وإن كان معناه الأمر بالتفويض وترك المعاقبة .

رابعا : فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات اللغة بالرجوع إلى أصل المعنى المستعمل فى المحسوسات أولا ثم يتتبع انتقاله إلى ما بعد ذلك من المعاني ، غير مكتف بقول فلان ، وفهم فلان ، فإن كثيرا من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التاويل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد .

فيجب على من يريد الفهم الصحيح أن يفرق بين الاصطلاحات التى حدثت فى الملة وبين ماورد فى الكتاب الكريم ، فلايتورط فى تلك الاصطلاحات ويطالب القرآن أن يُفسّر بها كلفظ (التأويل) وماحدث فيه من اختلافات جرت إليها كمصطلحات علوم الأصول والمتكلمين .

فعلى المفسر المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله . مقدرا عند ذلك تدرج دلالة الألفاظ وتغيرها وتأثرها فى هذا التدرج بالتفاوت فى استعمال الأجيال وبالظواهر النفسية والاجتماعية وعوامل حضارة الأمم وما إلى ذلك مما تعرضت له ألفاظ العربية .

والأفضل أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بتتبع دورانه فى الآيات المختلفة وتكرره فى مواضع منه فيحصى تلك المعانى ويوزعها فى الآيات حسب ما يتطلبه المعنى .

مثال ذلك قوله تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فلفظ الولى معناه فى القرآن غالبا (الناصر والموالى) وأولياء الله أنصار دينه من أهل الإيمان والتقوى .

وليس له أن يأخذ بما اصطلحوا عليه بعد ذلك على أن الأولياء صنف من الناس تظهر على أيديهم الخوارق . فإن الصحابة لا يعرفون هذا المعنى ولم يرد له استعمال فى القرآن الكريم .

قال الزمخشرى :

من بدع التفسير قول من قال فى تفسير قوله تعالى (يوم ندعو كل أناس بإمامهم) إن الناس فى الآخرة يُدعون بأمهاتهم

لا بآبائهم مراعاة لعيسى وإظهارا لفضل الحسن والحسين وسترا على أولاد الزنا . فهذا غلط فاحش أوقع فيه الجهل باللغة وتصريف الألفـاظ لأن (الأم) لا تجمع على (إمام) وإنما الإمام هنا بمعنى (مَن يؤتم به) من نبيّ أو مقدم فى الدنيا فيقال يا أتباع فلان . وقيل بكتاب أعمالهم فيقال ياهل كتاب الخير أو الشر .

خامسا : أن يكون له دراية بالأساليب وأسرارها وتذوق العبارات وإدراك مراميها وذلك إنما يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفطن لنكته ومحاسنه .

نعم إننا لا نتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام ولكن يمكننا فهم ما نهتدي به بقدر الطاقة ويحتاج فى هذا المقام إلى علم الإعراب ولكن لا على أن الإعراب عمل مقصود لذاته ولا لون يلون به التفسير كما كان الحال قديما عند بعض المفسرين كتفسير (البحر المحيط لأبى حيّان الأندلسى) بل على أن الإعراب أداة من أدوات بيان المعنى وتحديده .

ثم النظر إلى علم الأساليب والنظرة البلاغية فى هذه المركبات نظرة أدبية فنية تمثل الجمال القولى فى الأسلوب القرآنى .

سادسا : النظر في اتفاق معاني القراءات المختلفة للآيات الواحدة ، فإن كل قراءة تلقي ضوءا على المعاني المقصودة وتوضح الصورة توضيحا ظاهرا يدعو إلى الاطمئنان .

سابعا : الصحة النفسية في المعنى القرآني فقد استقر أن هناك صلة قوية بين البلاغة وعلم النفس مما سنوضحه في الفصل الآتي .

ولنختم هذا الباب : بما ذكره الزركشي في « البرهان » مكملا لتلك الثقافة قال :

١ — كتاب الله بحره عميق وفهمه دقيق ، لا يصل إلى فهمه إلا من تبحر في العلوم وعامل الله بتقواه في السر والعلانية وأجله عند مواقف الشبهات — واللطائف والحقائق لا يفهمها إلا من ألقى السمع وهو شهيد .

٢ — أصل الوقوف على معاني القرآن التدبر والتفكر . واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة وفي قلبه بدعة أو إصرار على ذنب او في قلبه كبر أو هوى او حب الدنيا ، أو يكون غير متحقق الإيمان او ضعيف التحقيق أو معتمدا على قول مفسر ليس

عنده إلا علم بظاهر أو يكون راجعا إلى معقوله وهذه كلها حجب وموانع وبعضها آكد من بعض .

٣ — الحق إن علم التفسير منه ما يتوقف على النقل كسبب النزول والنسخ وتعيين المبهم وتبيين المجمل ومنه مالا يتوقف ويكفى فى تحصيله التفقه على الوجه المعتبر .

٤ — أحسن طريق للتفسير ان يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل فى مكان فقد فُصل فى موضع آخر، وما اختصر فى مكان فإنه قد بسط فى آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له . قال تعالى (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) ولهذا قال ﷺ (ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه — يعنى السنة) فإن لم يوجد فى السنة يرجع إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن ولما أعطاهم الله من الفهم العجيب . فإن لم يوجد ذلك يرجع إلى النظر والاستنباط — انتهى كلام الزركشى .

ونحن نضيف إلى ما تقدم أنه لابد من إلمامة بتاريخ العقائد والأديان لترشد إلى سبيل التفكير الصحيح والرأى المستقيم المبنى على نظريات علم الاجتماع الدينى ومبادئ السلوك النفسى .

التفسير النفسى

إن هذا القرآن معجز من نواح متعددة وجوانب متفرقة من أهمها الجانب النفسى فهو من حيث هو كتاب هدى وبيان لن يدار الأمر فيه إلا على سياسة النفوس ومخاطبة القلوب ومناجاة الروح ، فالنظر الصائب إليه والفهم الصحيح له أو بعبارة أكثر صراحة : تفسيره لا يقوم إلا على إدراك ما استخدمه من ظواهر نفسية ونواميس روحية ادار عليها بيانه مستدلا وهاديا ومقنعا ومجادلا ومنذرا ومهددا .

وأصبح ما يبنى عليه هذا التفسير هو الحالات النفسية فيما يبين سر تعابيره وإنماط أساليبه من إيجاز وإطناب وتوكيد وإشارة وتكرار وإطالة وتقديم وتأخير ورمز وتفصيل .

فالقرآن الكريم قد راعى قواعد نفسية عن مظاهر الاعتقاد ومسارب الانفعال ونواحى التأثير، وأثار من هذا ماأيد به حجته وأظهر دعوته، وهو فى ذلك يساير من شئون النفس الإنسانية ويتغلغل فى شعابها وجوانبها ما لم يهتد إليه العلم إلا حديثا، فوق أن يهتدى إليه ذلك النبي الأمى، لولا أنه من صنع خالق القوى والقدر.

هذه لفتة من اللفتات إلى التفسير النفسى قد يكشفها مترادف الأمثلة ويجليها متتابع الشواهد.

من ذلك ما فى تفسير قوله تعالى فى سورة الشعراء « وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين » .

فقد ثار حول هذه الآيات خلاف مس الأصول البعيدة والأسس الغائرة من البناء القرآنى . فهذا فريق يحتج بها على نزول القرآن بالمعنى لا باللفظ وأن اللفظ من عند الرسول عليه السلام إذ لا ينزل على القلب إلا المعانى وهذه مزلقة إلى إنكار أن يكون لفظ القرآن معجزا .

ومنكر هذا النزول المعنوى يضطر إلى تناول النزول على القلب ليبين معدن العقل هو القلب أو الدماغ .

وهو ما يعرض له الفخر الرازى فى تفسيره ويورد فى ذلك آراء القدماء والمحدثين والاستدلال لكل رأى .

إلا أن الزمخشرى يدركه التوفيق فيفطن من ذلك إلى خاطرة نفسية دقيقة يكشف بها غبار الموقف . إذ يعلق قوله تعالى (بلسان عربى مبين) بالفعل (نزل) ويجعل المعنى هكذا نزله باللسان العربى لتنذر به لأنه لو نزله باللسان الأعجمى لتجافوا

عنه أصلا ولقالوا ما نصنع بما لا نفهمه ؟ فيتعذر الإنذار به .

وفى هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التى هي لسانك ولسان قومك ، تنزيل له على قلبك لأنك تفهم ويُفهم قومك ولو كان أعجميا لكان نازلا على سمعك دون قلبك لأنك تسمع أجراس حروف لاتفهم معانيها ولا تعيها . فقد يكون الرجل عارفا بعدة لغات فإذا كلم بلغته التى لقنها أولا ونشأ عليها وتطبع بها لم يتعلق قلبه إلا بمعانى الكلام يتلقاها ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت ، وإن كلم بغير تلك اللغة ـ وإن كان ماهراً بمعرفتها ـ كان نظره أولا فى ألفاظها ثم فى معانيها . فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربى مبين .

فبذلك المنهج النفسى فى فهم حال المتكلم بلغة الأم وحال المتكلم بغيرها ، كشف الزمخشرى غبار الموقف وهوّن الأمر حتى جعل الاحتجاج بالآية على النزول بالمعنى دون اللفظ يبدو واهنا ضعيفا .

وليس يحتاج إلى فهم الجوانب النفسية بإزاء الآيات التى يثور حولها مثل هذا الاختلاف فقط ، بل فى الآية التي لا خلاف فيها مطلقا قد ترفع الملاحظة النفسية إلى أفق باهر السناء خليق

بذلك الإعجاز الذى تحدى به الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

٢ — يقول علماء النفس :

إن عقدة النقص أو مركب النقص كما يسمونه أحيانا هو الشعور بالنقص فى ناحية من النواحى التى يحاول الشخص بطريقة لا شعورية أن يعوضها .

فمن منا لا يحاول من حيث لا يشعر أن يصرف الناس عن النواحى التى يشعر أنه أقل من غيره فيها .

ذلك أن كل شخص يشعر بتفوقه فى ناحية من النواحى يحاول بطريقة قد تكون لا شعورية أن يقنع العالم أن هذا هو الشىء الوحيد الذى يهم . فإن كان متفوقا فى الجسم اعتقد وحاول أن يقنع غيره أن صلاح الجسم وقوته هما فى آخر الأمر المقياس الذى تقاس به قيمة الإنسان . أما إذا كان ناقصا فى الناحية الجسمانية — وكان متفوقا فى الناحية العقلية — فإنه يميل إلى الحط من قدر القوة الجسمية وتأكيد أهمية القدرة العقلية . فإن كان عاملا غير حاذق أو فلاحا غير موفق حاول أن يظهر بمظهر القادر على التحدث فى الأمور السياسية .

وإذا لم يكن قد أخذ نصيبه من التربية ولكنه عصامى الثروة

لم تكن للتربية فائدة فى نظره وقال إن التعليم لم ينجح إلا فى إفساد الناس .

وإذا كان العكس وكان الرجل قد أخذ بنصيبه من التربية ولكنه لم ينجح فى الحياة فإنه لا يترك فرصة تسنح دون أن يقلل من قيمة النجاح فى الأعمال .

وهناك خرافة تسمى خرافة (إيزوب) عن الثعلب الذى عجز عن الوصول إلى عنقود العنب المتدلى من كرمة على الحائط فانصرف عنه وهو يعزى نفسه بقوله « ربما كان العنب حُصْرُماً » ؟

كثيرا ما نرى هذا فى بنى الإنسان رجالهم ونسائهم . فالجبان غالبا ما يستهزئ بالشجاعة ويصغر من شأنها . أليس هذا بعينه هو « العنب حُصرم » .

والمصاب بهذه العقدة إذا كان ذا روح عدائية فقد يحاول قهر الشعور بالنقص بالظهور بالسيطرة والغطرسة والمكابرة وغير ذلك من المواقف التى تندرج عادة تحت اسم الغرور .

فالتظاهر بالكمال والتفرد ليس إلا انعكاسا للشعور بالنقص وعلى ضوء هذا الجانب النفسى نفهم سر قوله تعالى فى وصف المنافقين . قال تعالى « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا

خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون » .

فالمنافق يعيب ويستهزئ بالمؤمن ليخفى ما فى نفسه من مركب النقص ويقهر الشعور بالضعف والقصور. ومثل ذلك « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما ا من السفهاء » .

ومن أعراض عقدة النقص قلق مبعثه شعور بالخوف من افتضاح أمره وا كتشاف نقصه فيتخذ لذلك مسلكا يعوض به نقصه ويخفى به قلقه وهذا هو سر الحلف والتأكيد فيما حكاه الله عن المنافقين فقال تعالى (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله) .

فى هذه الآية جملة تاكيدات لتعوض شعورهم بالنقص ولتستر خوفهم من فضيحة امرهم .

أول تلك التاكيدات قولهم « نشهد » . قال أبو حيان « نشهد » يجرى مجرى اليمين ولذلك تُـلقى بما يُتلقى به القسَم فقالوا « إنك لرسول الله » .

ثانيها (إن) فى صدر جملة جواب القسم .

ثالثها (اللام) فى خبر (إن) .

رابعها : الجملة الاسمية .

وراء كل هذه التأكيدات تحصَّنَ المنافقون ليخفوا شعورهم بعقدة النقص . ولذلك قال تعالى « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » فلم تواطىء قلوبهم ألسنتهم وهم كاذبون حتى أمام أنفسهم ، وإنما لجئوا إلى الحلف ليتخذوا منه جُنة يستترون بها ومسلكا يعوضون به شعورهم بالنقص فقال تعالى « اتخذوا أيمانهم جنة » .

ومن أعراض عقدة النقص التظاهر بالكمال والبعد عن النقص ، وهذا واضح فى جواب المنافقين للمؤمنين .

قال تعالى (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض) .

فالتهمة هنا الإفساد فى الأرض . فكان الجواب الطبيعى لرد هذه التهمة أن يقولوا ـ لو كانوا أبرياء حسنى النية ـ نحن لا نفسد فى الأرض ولكنهم تظاهروا بما هو أسمى من ذلك ووصفوا أنفسهم بالكمال والإصلاح فضلا عن تبرئهم من الإفساد . فقالوا فى صيغة التأكيد والحصر «إنما نحن مصلحون» ولا عمل لنا إلا الإصلاح .

كل ذلك استجابة لعقدة النقص وتغطية لشعور الضعة فإن التكلم بلهجة التعالى والتفاخر تعويض ملازم لمن ابتلوا بمركب النقص . فمثلهم فى ذلك مثل من يغالي فى الزينة ذكراً كان

أو أنثى ليغطي قبحه ويستر عيبه . فإن كل مغالاة من أي نوع كان، علامة لا تخطىء على الشعور بالنقص ولذلك تسرف المرأة العاطل من الجمال في زينتها كي تلطف من قبح طلعتها وانعدام جاذبيتها .

ويسرف الرجل الخالي من الأمانة في ذكر الأمانة وإطالة الحديث عنها . ويكثر الرجل المنافق المتذبذب في حياته من الحديث عن الصلابة في الرأي والصراحة في القول . ولا يخجل أن يتهم غيره بالنفاق ويرميه بالداء (رمتني بدائها وانسلت) .

٣ — ومن الجوانب النفسية التي ينكشف بها سر الإعجاز النفسي في القرآن الكريم ، جانب الاستهواء أو كما يسميه بعض علماء النفس بالإيحاء .

فالاستهواء هو إلقاء فكرة ما في نفس امرىء فيتقبلها من غير معارضة أو نقد ، ثم يعتقدها ويعمل كل ذلك بلا إرادة فيه ولا اختيار .

فالاستهواء هو تأثير امرىء في معتقدات آخر وسلوكه (أو في معتقداته وسلوكه هو) وهذا هو الإيحاء الذاتي .

وذلك — كما يقرر علماء النفس — ان أكثر أفكار المرء ومعتقداته ليست صادرة عن روية وتفكير صحيح . وذلك

على الرغم من أن الكثيرين منا يتخيلون ذلك ويأبون ألا يظهروا بمظهر المستقل برأيه الذى لا يأتى عملا ولا يعتقد أمرا إلا إذا كان لديه من الأسباب الصحيحه ما يحمله على ذلك . ولكن الواقع أن الاستقلال بالرأى والانفراد به أندر مما يظنه الناس .

فالمرء فى أكثر آرائه وأفكاره متأثر بغيره تأثرا غير قليل ولا سيما بتلك الآراء التى تشيع فى المجتمع وتصبح فيه اصطلاحا وعرفا، أو عقيدة لازمة بطريقة لا شعورية فكلنا نسير فى هذه الحياة مقلدين بعضا لبعض فى الخير والشر، فى الرأى وفى العمل كل حسب طبيعته وميوله وبيئته وتربيته ، لا حسب قوانين المنطق القاسية ولو كان كل فرد مستقلا برأيه لكان العالم غير ما هو عليه الآن . ولما كانت ثمة رابطة تربط المجتمع وتوثق أواخر الماضي بالحاضر وتجعله يحافظ على عاداته وقوميته وكيانه كما يجعل تقدمه ثابتا مطردا . فالأفراد والمجتمعات تتأثر بعضها ببعض — الأفراد تؤثر فى المجتمعات وتتأثر بها كما أن الفرد قد يؤثر فى الفرد أو يؤثر فى نفسه هو .

ولولا قابلية الأفراد والمجتمعات للتأثر بالآراء والمعتقدات لم يكن ثمة مجال للتعلم والتربى .

فتأثير المرء فى آراء غيره وأعماله او فى نفسه هو يسمى استهواء .

وأساس الاستهواء هو أن الأصل فى كل فكرة تخطر بالبال لا تبقى مجرد صورة قائمة فى الذهن بل تتحول إلى اعتقاد أو عمل وذلك بطريقة لاشعورية لا نعرف عنها شيئاً يذكر . فكل فكرة بها قوة كامنة ، فيها فهى إذن بداية عمل .

إن قابلية الناس للاستهواء عامة ، وأنها تكاد تكون غريزة فينا أو هى تتصل اتصالا وثيقا بغريزة الجماعة .

فالقابلية للاستهواء تكون عظيمة إذن .

١ — عند ضعاف الثقة بأنفسهم .

٢ — فى الجماعات . فالإنسان وسط الجماعة والازدحام يكون أميل إلى قبول ما يوحى إليه به غيره منه إذا كان منفردا فالمرء قد يأتى بأعمال كثيرة وهو وسط الجماعات لا يحلم أن يأتى بها وهو وحده .

وتكون قوة الاستهواء كبيرة شديدة التأثير فى نفس الموحى إليه إذا توافرت فيها بعض الشروط الآتية أو أكثرها :

١ — إذا كان الاستهواء صادراً من شخص له قيمة ذاتية أو مكانة عالية .

٢ — التكرار - فالشيء إذا تكرر إلى حد ما أثر في النفس وازداد قوة على قوته الأصلية .

يمكن تقسيم الاستهواء من حيث مصدره إلى قسمين :

(ا) خارجي: وهو ما كانت الفكرة فيه صادرة من شخص آخر أو من شيء أو من جماعة . فهو تأثير المرء في آخر وإخضاعه لرأيه أو اعتقاده .

(ب) استهواء ذاتي - وهو ما كانت الفكرة فيه صادرة من ذات الشخص - فأنت تلقى الفكرة في نفسك وتتركها حتى تصبح اعتقاداً أو أمراً واقعاً .

والاستهواء الذاتي نافع أحياناً ومضر أحيانا أخرى . فهو نافع كأن توحى إلى نفسك بالسعادة فتكون سعيداً او بالشفاء من مرض فتشفى من ذلك المرض . فالاعتقاد بالسعادة خير سبيل يؤدى إليها كما أن الاعتقاد بالشفاء من داء كثيراً ما يساعد على النجاة منه .

ولكن إلى جانب هذا النفع يوجد ضرر بليغ من الاستهواء ، فقد توحى إلى نفسك بالشقاء فتصير شقيا أو توحي إلى نفسك بالمرض فتصبح مريضاً .

فقد قال العلامة (ف جيلرمه) في كتابه « السر في خطا القضاء »

« إن من الاقتناع بصحة الكذب ما ينزله من نفس المقتنع في منزلة الحقيقة التي لا ريب فيها فيقسم أنه صادق وهو مطمئن إلى أنه صادق مع أنه في الواقع كاذب ولكن شدة قبوله للإيحاء جعلته يخضع للاستهواء ويلبي نداء الإيحاء » .

ونحن نقول أن هذا الضرب من الاستهواء هو الذي يفسر لنا ماحكاه الحصري القيرواني عن أشعب الطماع أنه قال :

« لقد طاف بي مرة صبيان فنادوا يا أشعب يا أشعب فأضجروني فدفعتُهم عني بأن قلت لهم : دار فلان تهب العطايا فبادروا . فلما ولوّا ظننت أني صادق فتبعتهم . »

هذا الاستهواء الذاتي على ضوئه نستطيع أن نتبين سر تعبيره تعالى في وصف المنافقين بقوله (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون) (ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون) .

فقد مسخت ضمائرهم ونكست وجداناتهم وضعفت عقولهم وجمدت عقائدهم فأصبحوا لايشعرن بالباطل بل يعتقدون أنه حق لأن نفوسهم قد مَردَت على النفاق واستعذبت حياة التذبذب واستنامت إلى الخداع والإيحاء الذاتي فاظلّم باطنهم وأعتم وجدانهم .

٤ — قال تعالى في سورة سبا (قل إنما أعظكم بواحدة

أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ، مابصاحبكم من جِنّة إن هو إلاّ نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

مثل هذه الآية لا يكشف عن سر بيانها ومناط إعجازها وحكمة التعبير فيها « مثنى وفرادى » إلا الرجوع إلى علم النفس والاطلاع على (العقل الفردى والعقل الجمعى) .

يقول علماء النفس : العقل الفردى هو ذلك العقل الذى يفكر وحده ويعمل بعيداً عن المجتمع كما فى حالة الفيلسوف الذى ينغمس فى أفكاره الفلسفية ويقضى بعض سويعات فى التفكير العميق بعيداً عن المجتمع معتكفا فى عقر داره لا أثر للتقاليد والآراء الاجتماعية فى نفسه .

أما العقل الجمعى فقد بيّنه ووصفه الفيلسوف الاجتماعى (جوستاف لوبون) حيث قال : إنه مهما كانت منزلة الأفراد الذى يكونون مجتمعاً من المجتمعات، ومهما بلغوا من التشابه بعضهم لبعض ومهما اختلفوا من حيث الميول ومقدار الذكاء والمهنة ونظام الحياة ، فإن اجتماعهم معاً يمنحهم عقلا جمعيا يجعلهم يفكرون ويشعرون ويعملون بطريقة مخالفة لطريقة تفكيرهم وشعورهم وعملهم لو كان بعضهم بمعزل عن بعض . وإن هناك

عوامل ثلاثة اساسية تعمل على ظهور هذه الروح الجمعية أو العقل الجمعى هي .

أولا : ما يسمي بالشعور بعدم المسئولية فالفرد فى الحشد يلقى المسئولية على الجمع نفسه ويتحرر عما يمنعه عادة من التعبير عن ميوله ورغباته وغرائزه فهو يختفى وراء الجمع ويطلق العنان لما يكبته في نفسه من الرغبات .

والجمع بكثرة عدده مشجع للأفراد على التعبير عن إحساساتهم فى حماسة ويولد عندهم قوة تدفعهم فى اتجاه معين .

ثانيا : ما يسمى بالعدوى النفسية ويقصد بهذه العدوى تلك الظاهرة النفسية التى تسرى من فرد إلى فرد فتجعلهم يرددون الشىء نفسه وبشكل آلى . ولهذا هو يصفها بأنها عامل من عوامل « التخدير » الاجتماعى به ينسى الفرد نفسه فى سبيل غاية جميعه ويعمل ويتحرك لتحقيقها .

فالمعتقدات سياسية كانت أم دينية تسرى بين الجماعات بالعدوى على الخصوص وعلى نسبة أفراد الجماعة يكون تأثير العدوى شديداً ولا يلبث المعتقد الضعيف أن يصبح قويا بعد أن يكتسب الأفراد الذين يعتنقونه صفة الجماعة .

والمعتقد بعد أن ينتشر بالعدوى لا يُلتفت إلى قيمته العقلية

لأنه لما كانت العدوي تؤثر فى دائرة اللاشعور فإنه لاشأن للعقل فيها . وفى الغالب تكون العدوى ذات تأثير فيمن هم أرفع من فى الجماعة ، ولذلك يجب أن لا نعجب من وجود علماء يدافعون عن أكثر المعتقدات شؤما ومخالفة للصواب .

ثالثاً : وهناك اخيراً عامل الإيحاء وهو حالة يفقد فيها الفرد الإحساس بوجوده الشخصى بحيث يضعف وجـوده الذاتى ويصبح تابعا لاسيداً يتحرك حسب مايملى عليه ويطيع طاعة عمياء الزعيم المسيطر على الجمع الحاشد ويصبح ألعوبة في يده . ولهذا تطغى الروح الجمعية عند الفرد على شخصيته الواعيةوعلى إرادته وعلي أحكامة وأفعاله وتصرفاته .

ويقابل هذه العوامل صفات لابد منها هى من المشخصات الضرورية للروح الجمعية أو العقل الجمعى وهى :

أولا : الاندفاع والانسياق بدون ترو أو تدبير .

ثانيا : المبالغة في فهم الحقائق .

ثالثا : عدم الثبات وسرعة التحول من رأى لرأى ومن فعل لفعل .

بعد كل هذا الشرح النفسى للعقل الجمعى قد بان لنا الحـكمة فى اشتراط الآية أن يـكون التفـكير بين اثنين اثنين أو واحدا

واحدا . خوف القضاء على الحقيقة فى الزحام وخفاء وجه صواب الرأى فى الاجتماع — فقال تعالى (قل إنما أعظكم بواحدة) أى إنما أنصحكم وأرشدكم بفكرة واحدة وهى (أن تقوموا لله) أي أن تجتهدوا فى الأمر بإخلاص لوجه الله (مثنى وفرادي) أى متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا لتسلموا من سلطان العقل الجمعى وتنجوا من الروح الجمعية فلا تقعون فى التهويش والتهريج وتخليط الكلام فيضيع الحق ويذوب الصواب فى ضوضاء الجماعات .

(ثم تتفكروا) فى أمره ﷺ وما جاء به فتعلموا (ما بصاحبكم من جنة) فهو برئ من الجنون وهو أرجح الناس عقلا وأصدقهم قولا وأذكاهم نفسا وأفضلهم علما وأجمعهم للكمالات البشرية . فواجب عليكم إذن أن تصدقوه فى دعواه .

والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام « بصاحبكم » للإيماء إلى أن حاله ﷺ مشهور بينهم لأنه نشأ بين أظهرهم معروفا بما ذكرنا .

ويعتبر العالم الاجتماعي الكبير (دور كايم) العقل الجمعى ملزما للناس بمعنى أنه آمر وله هيبة وله جزاؤه إن خولف فهو يضغط عليهم ويقاومهم إذا حاولوا الخروج عن حدوده

ويبدو أمامهم كضرورة حتمية لابد من احترامها .

أرايت بعد ذلك الإعجاز النفسى فى التعبير الموجز فى قوله تعالى « مثنى وفرادى » فأرادت الآية أن تسير بالمجتمع فى طريق السلامة فى تفكيره فنحته عن مواطن الزلل ومزالق الخطأ لتصل به إلى شاطىء الحق وبر السلام .

صدق الله العظيم « وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

• — يقول الدكتور (جوستاف لوبون) فى كتابه « الآراء والمعتقدات » .

إن التوكيد والتكرار عاملان قويان فى تكوين الآراء وانتشارها وإليهما تستند التربية فى كثير من المسائل وبهما يستعين رجال السياسة والزعماء كل يوم في خطبهم . ولا يحتاج التوكيد إلي دليل عقلى يدعمه وإنما يقتضى أن يكون وجيزا ذا وقع فى النفس .

والتوكيد لا يلبث بعد أن يكرر تكرارا كافيا ان يحدث رأيا ثم معتقدا والتكرار هو تتمة التوكيد الضرورية ومن يكرر لفظا أو فكرا أو صيغة تكراراً متتابعا فإنه يحوله إلى معتقد .

والتكرار من القوة بحيث يجعل الرجل يؤمن بالكلمات التى يكررها ويسلم بالأفكار التى يعرب عنها عادة .

ويقول فى كتابه « روح الاجتماع » .

إذا مست الحاجة إلى قيادة جماعة وحملها على عمل من الأعمال وجب التاثير فيها بخواطر سريعة . والأمثولة أشد ذلك تأثيرا فى نفوسها إلا أنه يجب ان تكون هناك أحوال جعلتها مستعدة للتاثر وأن يكون من يريد تحريكها حائزا للنفوذ .

لكن إذا كان الغرض بث افكار فى عقولها أو معتقدات في نفوسها فالوسائل غير ما تقدم ، وأخص ما يستعمل منها ثلاث: التوكيد والتكرار والعدوى .

فأما التوكيد فإنه من أهم العوامل لبث الفكر فى نفوس الجماعات متى كان بسيطا خاليا من التعقل والدليل ، وكلما كان التوكيد موجزا ومجردا عن كل ماله مسحة الحجة والتقرير كان عظيم التاثير .

إلا أن قيمة التوكيد هي بدوام تكراره بالألفاظ عينها ما أمكن ذلك . للتكرار تأثير فى عقول المستنيرين . وتأثيره أكبر فى عقول الجماعات من باب أولى . والسبب في ذلك كون المكرر ينطبع فى تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها

اسباب أفعال الإنسان فإذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحد منا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر .

وهذا هو السر في تأثير الإعلانات العجيب .

ومتى كثر تكرار أمر وأجمع المكررون عليه تولد من عملهم تيار فكرى يتلوه ذلك المؤثر العظيم أى العدوى .

وعلى ضوء هذه اللمسات النفسية ندرس ما جاء من التكرار فى القرآن الكريم .

أسرار التكرار فى القرآن :

اقتضت غلظة قريش وإيغالهم فى الوثنية وإنكارهم على محمد وشماتهم من دينه أن يخاطبهم الله عز وجل بقوارع من الكلام كالصوارم وزواجر من الوعيد كالحمم ، وأن يكرر لهم هذا التقريع لتلين قناتهم ويسلس قيادهم وأن يردد لهم هذا الزجر ليذكرهم بفواصل الآيات ما تضمنته الآيات من العبر وما توحى به من العظات .

قال تعالى فى سورة القمر وهى مكية : « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا

فالتقى الماء على امر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى باعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر .

كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر . إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كانهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر . » .

أرايت كيف كرر القرآن الكريم فى هذه السورة « فذوقوا عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » عدة مرات ليجدد عند استماع كل نبأ من انباء الأولين أدكارا واتعاظا وليستأنف السامعون تنبها واستيقاظا ، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه وليقرع لهم العصا مرات ويقعقع لهم الشن تارات لئلا يغلبهم السهو وتستولى عليهم الغفلة .

وكذلك الشان في تكرير قوله تعالى فى سورة المرسلات وهى مكية «ويل يومئذ للمكذبين» فقد تكررت عشر مرات من حيث أن السورة تضمنت ذكر نعم مختلفة ونقم متعددة فكان إذا ذكّرهم بنعمة او خوفهم من نقمة أكد التذكير والتخويف

بذكر الويل والهلاك المهيا للمكذبين الذين استخفوا بهذه النعمة أو تهاونوا بتلك النقمة فيكون ذلك رادعا للمخاطبين عن الغفلة وزاجرا لهم عن التمادى فى التكذيب وركوب الراس فى العناد .

فضلا عن ان تكرير جملة واحدة وإعاداتها مرارا فى خلال الكلام الواحد مالوف للعرب معهود فى خطبهم واشعارهم .

هذا التكرير الذى هو فى بلاغته فوق الإيجاز كما يقول صاحب المثل السائر قد ورد فى القرآن فى مقامات عدة — فقد ورد فى تكرير أنبائه وقصص انبيائه وتكرر فى آيات بذاتها وجمل بعينها كما هو الشأن فى سورة الرحمن وسورة الشعراء والمرسلات وسورة القمر .

ولقد شنع المستشرقون على هذا الضرب من الأسلوب وعدوه ضعفا وركة كما جاء فى دائرة المعارف البريطانية تحت مادة « قرآن » حيث ذكر كاتب المقال :

« فليس هناك مهارة أدبية عظيمة واضحة مبنية فى التكرير الذى لا لزوم له لنفس الكلمات والجمل » :

ولا غرابة فى أن تخفى على المستشرقين أسرار هذا التكرار فهم لم يألفوه فى لغاتهم ، ولو ألفوه لما أدركوه فى اللغة العربية لأن

لكل لغة ذوقا خاصا لا يُمنحه إلا أهلها ومن نشئوا على تذوقها.

فكلما لجّ العرب فى إنكار ماجاء به محمد صلوات الله عليه اشتد القرآن فى تقريعهم والإنكار عليهم فى أسلوب خطابى رائع قصير الفقرات زاخر المعانى شديد اللهجة أو فى أسلوب إقناعى قوته فى رقته وتأثيره فى تقريره. ومن أهم عوامل التأثير الخطابى تكرار جمل بعينها وإعادة عبارات بذاتها قال تعالى:

« وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد . وياقوم إنى اخاف عليكم التناد . يوم تولون مدبرين . ما لكم من الله من عاصم . ومن يضلل الله فما له من هاد . وقال الذى آمن ياقوم اتبعون اهدكم سبيل الرشاد . ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دَارُ القرار » .

على أن هذا النوع من التكرير يكاد يكون خاصا بالسور المكية وذلك لأن قريشا كانت أشد العرب إنكارا للنبوة وتماديا فى الطغيان وأعلاهم كيدا فى البيان وأشدهم تفهما لإنذار القرآن.

فمن الأمثلة على ذلك التكرير ما جاء فى سورة « الرحمن »

فقد تكرر فى هذه السوره « فبأى آلاء ربكما تكذبان » إحدى وثلاثين مرة .

والسر فى ذلك هو أنه تعالى قد عدد فى هذه السورة نعماءه وأذكر عباده آلاءه ونبههم فيها إلى قدرته ولطفه بخلقه ثم اتبع ذكر كل منة وصفها بهذه الآية « فبأى آلاء ربكما تكذبان » وجعلها وصلة بين كل نعمتين ليفهمهم النعم ويقررهم بها . وهذا كقولك للرجل وقد أحسنت إليه دهرك وتابعت عليه أياديك ، وهو فى ذلك ينكرك ويكفرك فتقول له : ألم أبوئك منزلا وأنت طريد أفتنكر هذا ؟ ألم احملك وانت راجل ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم أنقذك من هلاكك فى حادث الحريق ؟ أفتنكر هذا ؟

وغرض القرآن من ذلك التذكير بنعم الله التى لا تحصى ثم التوصل من ذلك إلى شكر الله صاحب النعم والاعتراف بألوهيته ووحدانيته فإن النفوس جبلت على شكر من أحسن إليها وتعظيم من أنعم عليها .

ولكن إذا كان واضحا فى الآيات التى تدل على النعم فى الدنيا كقوله تعالى : « مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان » « يخرج منها اللؤلؤ والمرجان » . « وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام » أو فى الآيات التى تدل على النعم فى الآخرة

من وصف نعيم الجنة وحورها كما في قوله تعالى : « فيهما عينان تجريان » . « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » .

فاى نعمة فى قوله تعالى : « كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

بل اى نعمة فى قوله تعالى : « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران . فباى آلاء ربكما تكذبان ؟ » . « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان فباى آلاء ربكما تكذبان؟ » « يعرف المجرمون بسيامهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » . « هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

فللجواب عن ذلك فى المسالة الأولى وهى « كل من عليها فان » أن فى هذه الآية التسوية بين الصغير والكبير والأمير والمأمور والمالك والمملوك والظالم والمظلوم فى الفناء المؤدى إلى دار البقاء ومجازاة المحسن والمسىء بحقه من الجزاء . فالمظلوم يؤخذ بحقه من الظالم ، والظالم يجازي على ظلمه فلا نعمة ولا رحمة إذن أكبر من هذا .

والجواب عن الثانى وهو أية نعمة ومنة فى وصف جهنم

وإنذار الثقلين وتخويفهما بشواظ من نار ونحاس ؟ فنقول :

إن الله تعالى منعم على عباده بنعمتين : نعمة الدنيا ونعمة الدين وأعظمهما هي الأخرى واجتهاد الإنسان ورهبته مما يؤلم أكثر من اجتهاده ورغبته فيما يلذ له .

فالإرهاب زجر على المعاصي وحث على الطاعات وهو سبب النفع الدائم فاية نعمة أكبر إذن من التخويف بالضرر المؤدي إلى أشرف النعم فلما جاز عند ذكر ما أنعم به علينا في الدنيا وما أعده للمطيعين في الأخرى أن تقول في هذين المقامين « فبأى آلاء ربكما تكذبان » جاز أن يقول عند ذكر مايخوفنا به مما يصرفنا عن معصيته إلى طاعته التي تكسبنا نعيم جنته كذلك لأن هذا أشوق إلى تلك الكرامة من وصف ما أعد فيها من النعمة فنعم الله فيما أنذر به وحذر من عقوباته على معصيته ليحذروها فيرتدعوا عنها نظير أنعمه على ماوعده وبشر من ثوابه على طاعته ليرغبوا فيها ويحرصوا عليها وإنما تتحقق معرفة الشيء بأن تعتبره بضده والوعد والوعيد وإن تقابلا في ذواتهما فإنهما متقاربان في موضع النعم بالتوقيف على ملاك الأمر منها.

قال بعض العلماء في توجيه العدد التي جاءت عليها الآية مكررة « فبأى آلاء ربكما تكذبان » إنه سبحانه نبه في سبع

منها على ما خلقه للعباد من نعم الدنيا المختلفــة وافرد سبعا منها للتخويف وفصل بين السبع الأولى والسبع الثانية بواحدة سوى فيها بين الخلق كلهم فيما كتبه عليهم من الفناء حيث اتصلت بقوله « كل من عليها فان » فـكانت خمس عشرة اتبعت بثمانية فى وصف الجان وأهلها ثم بثمانية اخر فى وصف الجنتين اللتين من دون الأوليين لذلك ايضاً فاستـكملت إحدى وثلاثين .

ومن ضروب التـكرار تـكرار القصص كقصة إبليس فى السجود لآدم وقصة موسى وغيره من الأنبياء .

قال الإمام ابو بكر بن العربى فى كتابه « العواصم من القواصم » .

ذكر الله قصة نوح فى خمس وعشرين آية وقصة موسى فى سبعين آية . قال الزركشى فى كتابه « البرهان » .

وإنما كررها لفائدة خلت عنه فى الموضع الآخر وهى أمور :

أحدها : أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئا ، الا ترى أنه ذكر الحيّة فى عصا موسى عليه السلام فى قوله تعالى فى سورة طه « فألقاها فإذا هى حية تسعى » وذكرها فى موضع آخر ثعبانا ، ففائدته أن ليس كل حى ثعبانا وهذه عادة البلغاء أن يكرر أحدهم فى آخر خطبته أو قصيدته كلمة لطيفة زائدة .

الثانية : ان الرجل كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين وكان أكثر من آمن به مهاجريا .

فلولا تكرر القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى آخرين ، وكذلك سائر القصص ، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها فيكون فيه إفادة القوم وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين وهم الحاضرون ..

وعبّر عن هذا ابن الجوزى وغيره .

الثالثة : تسليته لقلب النبى ﷺ مما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم قال تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » .

الرابعة : أن القصة الواحدة من هذه القصص كقصة موسى مع فرعون — وإن ظن أنها لا تغاير الأخرى — فقد يوجد فى ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير مما يتطلبه المقام وتستدعيه الظروف والملابسات التى سبقت من أجلها القصة .

ومن استقرأ قصص القرآن تبين له أن القصة الواحدة مكونة من عدة وقائع وإن كل واقعة فيها عبرة ولها مغزى وأن المقصود من القصة مجموعة العظات التى فى وقائعها .

فقد يقتضي سياق الآيات فى القرآن الكريم تذكير الرسول بما قاساه الرسل من قبله من تكذيب وإيذاء وسخرية واستهزاء فتذكر قصة او قصص وتكون واقعة الإيذاء والاستهزاء موضع الأسهاب والأطناب .

وقد يقتضى سياق الآيات تذكير المخاطبين المعاندين بما نال الجاحدين من قبلهم فتذكر القصة أو القصص مع الإسهاب والإطناب فى الإغراق بالطوفان وإرسال الصواعق والابتلاء والآفات .

وقد يقتضى سياق الآيات أن الله يؤيد رسله بالمعجزات فتذكر القصة مع الإسهاب فى معجزة الرسول الذى تتحدث عنه .

فليس من السداد أن يتسرع المتسرع ويقول ، لم هذا التكرار فى قصة موسى وفرعون ؟ فنقول الواجب يتقاضى هذا السائل أن يدرس فى كل سورة جاءت فيها قصة موسي وفرعون ليتبين له ما السياق الذى اقتضى إيراد هذه القصة فى هذا الموضع وما العبرة التى قصدت من إيرادها وما الواقعة التى خصت بالإسهاب من وقائعها لأنه إذا درس هذا تحقق أنه لا تكرار وإن كل مقام له مقال .

فسنة القرآن فى ذكر القصص والوقائع مخالفة للمهود

فى أساليب الكلام من سردها مرتبة كما وقعت .

وإن سبب هذه المخالفة فى الترتيب مرتبط بالغاية التى يقصدها القرآن من ذكر تلك الوقائع وسرد تلك الأخبار فهو لا يسردها لأجل أن تكون تاريخا محفوظا على صورة كتب التاريخ التى تذكر فيها الوقائع، مرتبة على حسب زمن وقوعها، وإنما هو يذكر لأجل العبرة والموعظة وبيان الآيات والحكم الإلهية والأحكام العملية ، وليبين فيها السنن العامة فى سير المجتمع وما تصلح به الأمم فى حياتها .

فالقرآن حملات روحية خطابية لا يقصد بها تسلسل الخبر ولكن تستخدم فيها القصة للتذكير أو التهويل، ولذلك ترد مرارا وكثيراً ما تروى على سبيل الإشارة والتلميح ، وفى هذا نوع من إعجازه ، فهو القصص الحق كما قال تعالى « إن هذا لهو القصص الحق » وهو أحسن القصص كما قال تعالى « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » .

وهو من أنباء الغيب كما قال تعالى « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » .

يقول الأستاذ الإمام فى تفسيره لسورة البقرة :

« إن الباحثين فى التاريخ لهذا العهد قد رجعوا إلى هذا

الأسلوب الذى سلكه القرآن من حيث التقديم والتأخير وقالوا إن الطريق إلى ذلك هو أن تنظر فى كل حادثة من حوادث الكون كالثورات والحروب وغيرها، ونبين أسبابها ونتائجها من غير تفصيل ولا تحديد لجزئيات الوقائع بالتاريخ. فهذا ضرب من ضروب الإصلاح العامى جاء به القرآن وأيده سير الاجتماع فى الإنسان » . انتهى كلام الإمام.

ونحن إذا درسنا أدب القصة وضح لنا ان بلغاء كتاب الإفرنج فى عصورهم الأخيرة إذا ما أفرغوا مبادىء الأدب والأخلاق والحوار الاجتماع في قالب قصة، قدموا واخروا فى أجزاء موضوعها، بحيث تقرأ فاتحة القصة فلا تفهم شيئاً ثم كلما تسلسل الحديث بك ازددت فهما لها وتعقلا لموضوعها وأغراض مولفها.

وكلهم يقـــول إن هذا الأسلوب في الحديث عن القصة هو أبلغ فى التأثير وأشد فى الإيقاظ وتحريك النفوس وإثارة التشويق.

وقد سبقهم القرآن الكريم إلى ذلك من غير مناقضة للتاريخ ولا مخالفة للواقع.

(افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .

بقى هنا سؤالان :

السؤال الأول : ما الحكمة فى عدم تكرر قصة يوسف عليه السلام ، وسوقها مساقاً واحداً فى موضع واحد ، دون غيرها من القصص .

والجواب من وجوه :

الأول — ما فيها من تشبيب النسوة به ، وتضمن الإخبار عن حال امرأة ونسوة، افتتن بابدع الناس جمالا وأرفعهم مثالا فناسب عدم تكراروها ، لما فيها من الإغضاء والستر عن ذلك . وقد صحح الحاكم فى مستدركه حديثاً مرفوعاً إلى النبى ﷺ : النهىُ عن تعليم النساء سورة يوسف .

الثانى — أنها اختصت بحصول الفَرَج بعد الشدة، بخلاف غيرها من القصص، فإن مآلها إلى الوبال، كقصة إبليس وقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم . فلما اختصت هذه القصة فى سائر القصص بذلك ، اتفقت الدواعى على نقلها لخروجها عن سمت القصص .

الثالث — أن قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما

كررت لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم . والحاجة داعية إلى ذلك لتكرير تكذيب الكفار للرسول صلوات الله عليه ، فلما كذبوا نزلت قصة منذرة بحلول العذاب كما حل على المكذبين . وقصة يوسف عليه السلام لم يقصد منها ذلك . وبهذا ايضا يحصل الجواب عن حكمة عدم تكرير قصة اصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين وقصة موسى مع الخضر وقصة الذبيح .

السؤال الثانى — إنه سبحانه وتعالى ذكر قصة قوم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى فى سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء ، ولم يذكر معهم قصة إبراهيم . وإنما ذكرها فى سورة الأنبياء ومريم والعنكبوت والصافات والسر فى ذلك ان تلك السور الأول ذكر الله فيها نصر رسله باهلاك قومهم ونجاه الرسل وأتباعهم . وهذه السور لم يقتصر فيها على ذكر من أهلك من الأمم ، بل كان المقصود ذكر الأنبياء وإن لم يذكر قومهم ، ولهذا سميت سورة الأنبياء فذكر فيها إكرامه للأنبياء وبدا فيها بقصة إبراهيم إذ كان المقصود ذكر كرامته الأنبياء قبل محمد وإبراهيم أكرمُهم على الله وهو خير البرية وهو أب أكثرهم وليس هو أب نوح ولوط لكن لوط

من أتباعه وأيوب من ذريته بدليل قوله تعالى فى سورة الأنعام « ومن ذريته داود وسليمان » .

وهذه الأمور تدل على حكمة الرب وعقوبته لكل قوم بما يناسبهم .

* * *

يقول علماء النفس :

إن كل غريزة يمكن أن تتوجه إلى ناحية الشر فتصبح وبالا على الفرد أو المجتمع ، وقد تتوجه إلى الخير فتصبح مفيدة لهما وتوجيه الغريزة إلى إحدى الناحيتين هو ما يسمى بالتحول والتعلية فى الغرائز .

فتعلية الغريزة إذن هى ترقية شأنها وتهذيبها وإبلاغها درجة الكمال والسلوك بها مسلكا من شأنه أن ينفع الفرد والمجتمع ولا يجلب لهما الضرر .

وطرق تعلية الغرائز شتى نذكر منها ثلاث :

١ — القمع : ومعناه القضاء على غريزة من الغرائز وإماتتها لعدم موافقة نزعاتها للحياة الاجتماعية، وذلك بالضغط عليها وكبح جماحها كما هو الحال فى الغريزة الجنسية .

وهذه الطريقة ليست مفيدة فى تعلية الغرائز بل إنها كثيراً ما تضر بالشخص أو المجتمع لأن الغريزة المكبوتة تحاول أن

تظهر وتسعى سعيا حثيثا فى فك أسرها فإذا أفلتت من عقالها بطرق غير مشروعة فملت فإن لم تستطع هذا اضرت بالشخص جسميا او عقليا .

وهذه الوسيلة ابتعد عنها القرآن ولم يتخذها طريقا من طرق معالجة الغريزة وتعليتها .

٢ — الخضوع للقوانين الشرعية والاجتماعية : وهو يسمى أحيانا بالإشباع ، وذلك كما فى الغريزة الجنسية التى تحصل علي رغباتها وتعلى شانها بالزواج الذى يبرره الشرع ويعضده القانون الاجتماعى . وكما فى غريزة السيطرة وحب الظهور حيث تستخدم فى حيازة الأشياء المشروعة النافعة ابتعادا بها عن مواطن الضرر والاستغلال .

وهذه الطريقة تسمى أحيانا بالتحويل .

٣ — الثواب والعقاب: فالإنسان يقدم على العمل الغريزى الذى يترتب عليه ثواب ويتباعد عن ذلك الذى ينشا عنه عقاب . فالثواب والعقاب يحملان المرء على أن يجعل غريزته تسلك سلوكا حسنا وتجتنب السلوك القبيح .

فمحاولة قمع الغريزة وإخمادها وكتمانها فى اللاشعور يجعلها تؤثر فى سلوك الإنسان وأعصابه أثرا غير حميد .

وإن إتاحة الفرصة لظهورها قد يقلل من أثرها السيء ويخضد من شوكتها ويطهر النفس منها.

ويشبه الاستاذ (طمسن) الغرائز بنهر متدفق والقيود والحواجز التي حتمتها الحياة الاجتماعية ووضعتها أمام الغرائز بسد ضخم يعترض مجرى النهر فماذا يحدث إذا تعسفت هذه القيود وبقي السد أمام المياه المتدفقة مصمتا لا منافذ فيه ؟.

فهناك احتمالات ثلاثة :

١ — إما أن تندفع المياه بشدة وتحطم السد أو تعلو فوقه وتفيض على الجانبين كما يحدث لدى الأفراد الذين لا يعبأون بعرف ولا قانون في الجرائم الخلقية والقانونية على السواء.

٢ — وإما أن ينجلي الصراع بين الماء المتدفق والحاجز عن قنوات خفية آسنة يتسرب فيها الماء من تحت السد. والمجتمع مليء بهذه الأساليب المموهة الخادعة، التي يلجأ إليها بعض الافراد ليستروا نزوعهم الخفي الجائر الذي الذي لا يقره العرف أو القانون .

٣ — وإما أن يكون الحاجز من القوة وعمق الأساس والماء من التدفق والوفرة بحيث تظل المعركة قائمة ويشتد الفوران . وتكثر الدوامات وليس ذلك بالطبع إلا على حساب الصحة

النفسية لأولئك الأفراد الذين يعجزون بحكم الطبيعة والتربية عن انتهاك القواعد وإسكات الغرائز فيشتد بهم الصراع ويروحون في النهاية ضحية لهذا الموقف الذي يسبب لهم الكثير من الانحرافات النفسية والعقلية .

ويبذل المجتمع الكثير من الجهد وينفق المال الطائل والعناء الجم لاتقاء شر هذه الطوائف الثلاث الآنفة وحماية نفسه منها .

ولا جدال في أن الأسلوب السليم هو أن نسمح للغرائز ببعض الإشباع لأن اقتلاعها مستحيل وكبتها يحولها إلى طاقات ضارة في اللاشعور وكأننا بذلك نبقي على مجرى السد ونفتح فيه منفذاً وقائياً للتنفيس الذي يمكن أن يأخذ صورتين هما الإبدال والإعلاء .

وهذا هو معنى قوله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا »

فبالإبدال تحوّل الطاقة القوية للغريزة إلى أساليب متنوعة من النشاط الفردي والاجتماعي .

وبالإعلاء نسمو بدافع الغريزة ونعلو به إلى المستوى المشروع معنويا كان أو ماديا كما نفعل في تسخير غريزة الاستطلاع في خدمة البشرية بدلا من الوقوف على أسرار الناس والاتجار بها وفي أشباع الغريزة الجنسية بالزواج وهو نظام مشروع .

فلنطبق هذه المبادىء النفسية عند تفسيرنا لقوله تعالى في سورة آل عمران . « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » .

إن التزيين في هذه الآية قائم على أربع غرائز .

١ — الغريزة الجنسية .

٢ — غريزة حب الاقتناء والتملك .

٣ — غريزة حب الظهور والسيطرة .

٤ — غريزة المحافظة على النسل .

وقد اختلف المفسرون في إسناد التزيين في هذا المقام فأسنده بعضهم إلى الشيطان .

ولكن الرأي الذي نرجحه ونميل إليه هو إسناد التزيين إلى الله تعالى بالإيجاد والتهيئة للانتفاع ، فأباح الزينة والطيبات من الرزق ، وأنكر على من حرم ذلك بقوله تعالى « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

فالمراد أن الله تعالى أنشأ الناس وفطرهم على هذه الغرائز قال تعالى : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » .

فأتت الآية بذكر الشهوات مجموعة على سبيل الإجمال ثم أخذ في تفسيرها شهوة شهوة أو غريزة غريزة ليدل على أن المزيّن ما هو إلا شهوة دنيوية لا غير فيكون في ذلك تنفير عنها وذم للذي يختارها ويفضلها على ما عند الله وبدأ في تفصيلها بالأهم فالأهم .

وفي التعبير في قوله تعالى (زُيّن) بالبناء للمجهول إنما يراد به أن تركيبهم الفطري قد تضمن هذا الميل فهو أصيل في فطرة الناس . وهذا تقرير للواقع من أحد جوانبه — ففي الإنسان هذا الميل العميق وهو جزء غريزي من تكوينه الأصيل لاحاجة إلى إنكاره فهو ضروري للحياة البشرية كي تناصل وتنمو وتطّرد . ولكن الواقع يشهد كذلك بان في فطرة الإنسان استعداداً آخر للتسامي بغرائزه هذا الاستعداد الثاني يهذب الاستعداد الأول وينقيه من الشوائب ويجعله في الحدود المأمونة التي لا يطغى فيها جانب اللذة الحسية ونزعاتها القريبة على الروح الإنسانية وأشواقها البعيدة . والاتجاه إلى الله وتقواه هو خيط الصعود والتسامي والتعلية لتلك الغرائز الإنسانية .

وهنا يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة وقبولها بواقعها ومحاولة

تهذيبها لا كبتها وقمعها تجنبا لما يحدثه الكبت من العقد النفسية والصرعات الباطنية .

ثم ختمت الآية بقوله تعالى «ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » ذلك كله الذي عرضه السياق من اللذائذ المحببة . ذلك كله متاع الحياة الدنيا لا الحياة السامية الرفيعة ولا الآفاق البعيدة . متاع هذه الأرض .

فاما من أراد الذى هو خير من ذلك كله خير لأنه أرفع فى ذاته وخير لأنه يرفع النفس ويصونها من الاستغراق فى الشهوات والانكباب على الأرض فى هذه الحياة . من اراد الذى هو خير فعند الله حسن المآب .

ثم أردف هذه الآية بما يعلى هذه الغرائز ويتسامى بها ليضمن سلامة الكائن الإنسانى من هذا الصراع بين شطرى النفس البشرية : بين نوازع الشهوة واللذة وأشواق الارتفاع والتسامي فقال تعالى « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد » .

وهذا المتاع الذي تذكره الآية هنا هو نعيم حسى فى عمومه ولكن هناك فارقا أساسيا بينه وبين متاع الدنيا . إنه متاع

لا يناله إلا الذين اتقوا . الذين كان خوف الله وذكره فى قلوبهم .
وشعور التقوى شعور مهذب للروح والحس جميعا . شعور ضابط
للنفس أن تستغرقها الشهوات وأن تنساق فيها كالبهيمة . فالذين
اتقوا ربهم حين يتناولون هذا المتاع الحسى يتناولونه بحس التقى
المرهف العفيف وفيه دفع تعويض كامل عن متاع الدنيا وفيه زيادة.
فإذا كان متاعهم فى الدنيا حرثا مخصبا ممطيا ففى الآخرة
جنات كاملة تجرى من تحتها الأنهار وهى فوق هذا خالدة مقابل
ذلك الحرث الزائل الفانى .

وإذا كان متاعهم فى الدنيا نساء وبنين ففى الآخرة أزواج
مطهرة وفى طهارتها فضل وميزة على شهوات الدنيا .

فأما الخيل المسومة والأنعام وأما القناطير المقنطرة من
من الذهب والفضة فقد كانت فى الدنيا وسائل للتظاهر وحب
التملك فأما فى نعيم الأخرى فلا حاجة إلى هذه الوسائل .
لذلك لم يرد لها هنا مقابل .

ثم انتقلت الآية بعد ذلك إلى ما هو أعظم الأشياء وأكبر
من كل لذة وفوق كل شهوة . هنالك « رضوان من الله »
رضوان يعدل الحياة الدنيا والحياة الأخرى كليهما ويشع بكل
ما فى اللفظ من نداوة وبكل ما فى معناه من حنان . « والله بصير

بالعباد » بصير بحقيقة فطرتهم وما ركب فيها من ميول ونزعات بصير بما يصلح لهذه الفطرة من إيحاءات وتوجيهات .

فسبحانه « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » .

(اعلمو أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .)

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها للآن

١ — الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين	للأستاذ عباس محمود العقاد
٢ — الإشتراكية والشيوعية	للأستاذ على أدهم
٣ — الظاهر بيبرس في القصص الشعبي	للدكتور عبد الحميد يونس
٤ — قصة التطور	للدكتور نور عبد العليم
٥ — طب وسحر	للدكتور بول غليونجي
٦ — فجر القصة	للأستاذ يحيى حقى
٧ — الشرق الفنان	للدكتور زكى نجيب محمود
٨ — رمضان	للأستاذ حسن عبد الوهاب
٩ — أعلام الصحابة	للأستاذ محمد خالد
١٠ — الشرق والإسلام	للأستاذ عبد الرحمن صدقى
١١ — المريخ	للدكتور جمال الدين والدكتور محمود خيرى
١٢ — فن الشعر	للدكتور محمد مندور
١٣ — الاقتصاد السياسى...	للأستاذ أحمد محمد عبد الخالق
١٤ — الصحافة المصرية	للدكتور عبد اللطيف حمزه

١٥ — التخطيط القومى ... ... للدكتور إبراهيم حلمى عبد الرحمن
١٦ — اتحادنا فلسفة خلقية ... للدكتور ثروت عكاشة
١٧ — اشتراكية بلدنا ... ... للأستاذ عبد المنعم الصاوى
١٨ — طريق الغد ... ... للأستاذ حسن عباس زكى
١٩ — التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه الغربى } للدكتور محمد يوسف موسى
٢٠ — العبقرية فى الفن ... ... للدكتور مصطفى سويف
٢١ — قصة الأرض فى إقليم مصر للأستاذ محمد صبيح
٢٢ — قصة الذرة ... ... للدكتور إسماعيل بسيونى هزاع
٢٣ — صلاح الدين الأيوبى بين شعراء عصره وكتابه } للدكتور أحمد أحمد بدوى
٢٤ — الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى للدكتور محمد مصطفى حلمى
٢٥ — تاريخ الفلك عند العرب... للدكتور إمام إبراهيم أحمد
٢٦ — صراع البترول فى العالم العربى للدكتور أحمد سويلم العمرى
٢٧ — القومية العربية ... ... للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
٢٨ — القانون والحياة ... ... للدكتور عبد الفتاح عبد الباقى
٢٩ — قضية كينيا ... ... للدكتور عبد العزيز كامل
٣٠ — الثورة العرابية ... ... للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
٣١ — فنون التصوير المعاصرة للأستاذ محمد صدقى الجباخنجى
٣٢ — الرسول فى بيته ... ... للأستاذ عبد الوهاب حمودة
٣٣ — علام الصحابة (المجاهدون) للأستاذ محمد خالد
٣٤ — الفنون الشعبية ... ... للأستاذ رشدى صالح
٣٥ — إخناتون ... ... للدكتور عبد المنعم أبو بكر
٣٦ — الذرة فى خدمة الزراعة ... للدكتور محمود يوسف الشواربى

٣٧ — الفضاء الكونى ... ... للدكتور محمد جمال الدين الفندى
٣٨ — طاغور شاعر الحب والسلام للدكتور شكرى محمد عياد
٣٩ — قضية الجلاء عن مصر ... للدكتور عبد العزيز رفاعى
٤٠ — الخضراوات وقيمتها الغذائية والطبية للدكتور عز الدين فراج
٤١ — العدالة الاجتماعية ... ... للأستاذ المستشار عبد الرحمن نصير
٤٢ — السينما والمجتمع ... ... للأستاذ محمد حلمى سليمان
٤٣ — العرب والحضارة الأوربية ... للأستاذ محمد مفيد الشوباشى
٤٤ — الأسرة فى المجتمع المصرى القديم للدكتور عبد العزيز صالح
٤٥ — صراع على رض الميعاد ... للأستاذ محمد عطا
٤٦ — روّاد الوعى الإنسانى... ... للدكتور عثمان امين
٤٧ — من الذرة إلى الطاقة ... ... للدكتور جمال الدين نوح
٤٨ — أضواء على قاع البحر ... ... للدكتور أنور عبد العليم
٤٩ — الأزياء الشعبية ... ... للأستاذ سعد الخادم
٥٠ — حركات التسلل ضد القومية العربية للدكتور إبراهيم أحمد العدوى
٥١ — الفلك والحياة ... ... { للدكتور عبد الحميد سماحة
والدكتور عدلى سلامة }
٥٢ — نظرات فى أدبنا المعاصر... ... للدكتور زكى المحاسنى
٥٣ — النيل الخالد ... ... للدكتور محمد محمود الصياد
٥٤ — قصة التفسير ... ... لفضيلة الشيخ أحمد الشرباصى
٥٥ — القرآن وعلم النفس ... ... للأستاذ عبد الوهاب حموده

الثمن قرشان فقط

مطابع دار القلم بالقاهرة